

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

نحو خطاب عقلاني رشيد

إعداد

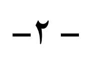
أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٣٩هـ /٢٠١٧م





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

(هود: ٨٨)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمـــة

نحن في حاجة أن نفكر ونفكر ، ثم نفكر ونفكر ، وأن نتأمل ونتدبر، فالتفكير فريضة دينية حيث يقول الحق سبحانه :{فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}(الحشر : ٢) ، ويقول سبحانه: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}(الحج : ٤٦) ، ويقول سبحانه : {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}(الأنعام : ١١) ، ويقول سبحانه:{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ}(الأعراف: ١٨٤) ، ويقول سبحانه :{ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}(يونس :١٠١) .

ولما نزل قول الله تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}(آل عمران : ١٩٠-١٩٢) قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : (وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا) (رواه ابن حبان في صحيحه).

وما أضاع أمتنا وأدى إلى ترهل ثقافتنا سوى العقول الاستسلامية أو

الجامدة ، وغلبة العقلية المجترّة المعتمدة على مجرد التلقين والحفظ على العقلية المفكرة المبدعة أو الناقدة ، حتى صار الحذر من الجديد آفة ربما يمكن أن نطلق عليها (التجديد فوبيا) ، وليس ذلك وليد اليوم ، فقضية الصراع بين التعصب القديم والإيمان بالتجديد متعمقة في التاريخ الثقافي ، فقد روي أن رجلاً أنشد الأصمعي قوله:

هل إلـى نظـرةٍ إليـكِ سبيــــــلُ

فيُروى الصَّدَى ويشفــى الغليــــــلُ

إن ما قـلَّ منــــك يكثُـرُ عنــــدي

وكثيــرٌ ممــــا تُحِـــبُّ القليــــلُ

فقال الأصمعي : إن هذا لهو الديباج الخسرواني ، أي الشعر الجيد الذي يمتدح ويشاد به ، ثم استرسل الأصمعي : لمن تنشدني ، فقال الشاعر : إنهما من شعره أنشدهما لليلته ، وهنا غير الأصمعي رأيه على الفور قائلا : إن أثر التكلف عليهما لبيّن ، وما ذاك إلا لعصبيته للقديم دون سواه بغض النظر عن الجودة وعدمها .

إننا لفي حاجة إلى خطاب عقلاني رشيد في الفكر الديني والمجال الثقافي والعلمي والتربوي لنكسر حالة الجمود الكامنة داخل نفوس كثيرين ، وننطلق معًا إلى فضاء أرحب وأوسع من العلم والفكر والتأمل والتدبر ، والاجتهاد والنظر ، دون خوف ولا وجل ، وبلا أدنى توجُّس أو تردُّد ، طالما أننا نعرف غايتنا ، ونحافظ على ثوابتنا الشرعية وقيمنا المجتمعية دون إفراط أو تفريط .

الخطاب العقلي الرشيد هو الذي يحترم عقلية المخاطب ، ويتخير من الخطاب ما يرى أن المتلقي قادر على استيعابه فهمًا ولغة ، وقد روي أن الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كان يقول : " حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ وقد قالوا : ليس كل ما يُعلم يقال ، وكان الشافعي رحمه الله يقول:

فـــإن يسَّــر الله الكريــم بفضلـــــه

وقابلـــتُ أهلا للعلـــوم ولِلْحِكَـــــمْ

بثثت علومي واستفـــدت وِدادهـــم

وإلا فمخـــزون لــــديَّ ومُكتَتَـــــمْ

فمن منح الجهـــال علمــا أضاعــــــه

ومن منع المستوجبيـــن فقد ظَلَـــــمْ

ويجب أن نتخلص جميعًا وسريعًا من العصبيات الفكرية والمذهبية والطائفية والأيدلوجية، وأن نتحلى باحترام نتاج عقل الآخر والمختلف، وقد كان الشافعي (رحمه الله تعالى) يقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب ، بل إن الصواب في بعض المسائل قد يتعدد ، فيكون كلا الرأيين صوابًا غير أن أحدهما قد يكون راجحًا والآخر مرجوحًا ولو باعتبار الزمان أو المكان أو الحال ، فما يكون راجحًا في زمان قد يصبح مرجوحًا في زمان آخر ، وما يكون راجحًا بالنظر إلى طبيعة البيئة والمكان قد يكون مرجوحًا في مكان آخر أو بيئة أخرى ، وعلينا أن ندرك أن الأقوال الراجحة ليست معصومة ، وأن الأقوال

المرجوحة ليست مهدومة ، طالما أن لصاحبها حظًّا من الاجتهاد والنظر والدليل أو الرأي المعتبر .

ويضم هذا الكتاب مجموعة مختارة من المقالات التي تعتمد الخطاب العقلاني في العرض والتناول والمعالجة .

والله من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل .

*   *   *

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

حديث معاذ عمدة الاجتهاد

عندما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) سيدنا مُعَاذ بن جبل إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : (كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟) ، قَالَ : أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ . قَالَ : (فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ في كِتَابِ اللَّهِ؟) . قَالَ : أَقْضِي بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم–. قَالَ : (فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ في سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ). قَالَ : أَجْتَهِدُ رأيي ولاَ آلُو . قَالَ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ في صدري وَقَالَ : (الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ)، والمراد بقوله : (لا آلو) أي لا أقصر في الاجتهاد والنظر في المسألة .

فلا شك أن هذا الحديث النبوي الشريف يعد عمدة في فتح باب الاجتهاد وإعمال العقل إلى يوم القيامة ، حيث بدأ سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) بالنظر في كتاب الله ، فإن وجد في المسألة مناط الفتوى حكمًا من كتاب الله تعالى ينطبق عليها واقعًا حَكَمَ فيها بما ورد في كتاب الله ، سواء أكان حكمًا قطعي الثبوت والدلالة أم كان حكمًا قطعي الثبوت ظني الدلالة ، أي مما يحتاج إلى إعمال العقل في استخلاص الحكم ، مع تحقق المناط وانطباق النص على الواقع ، فإن لم يجد في المسألة نصًّا قرآنيًّا لا قطعي الدلالة ولا ظنيها انتقل إلى سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سواء أكان الانتقال لتفسير النص القرآني ، أو بيان مجمله ، أو تقييد مطلقه ، أو تخصيص عمومه ، أم كان حديثًا منشئًا لحكم تفصيلي في ضوء المقاصد العامة للتشريع المتضمنة في كتاب الله ، فإن

لم يجد حديثًا قاطعًا بالحكم في المسألة أو لم يجد فيها حديثًا أصلاً ، عمد إلى إعمال العقل وقياس الأشباه والنظائر ، واجتهد رأيه دون تقصير.

ولنا في ذلك وقفات :

الأولى : أن سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) كان قد بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى اليمن في حياته (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يقل له سيدنا معاذ إذا لم أجد حكمًا في المسألة في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنتظر أو أتوقف حتى أرجع إليك أو سأرسل إليك رسولاً ، ولم يطلب النبي (صلى الله عليه وسلم) منه ذلك ، بل أطلق له حرية الاجتهاد في حياته (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يطلب منه حتى مراجعته وعرض ما يقضي به عليه ، بل ترك له مساحة واسعة للاجتهاد والنظر ، قائلا له : (الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله) .

الثانية : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إِنّ اللَّهَ (عز وجل) يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا) ، وطبيعي أن هذا التجديد لا يكون إلا بالاجتهاد والنظر ومراعاة ظروف العصر ومستجداته، وقراءة الواقع قراءة جديدة في ضوء المقاصد العامة للتشريع .

الثالثة : أن الله (عز وجل) لم يخص بالاجتهاد ، ولا بالفقه ولا بالعلم ولا بالحكم ولا بالبلاغة ولا بالبيان قومًا دون قوم ، أو رجالا دون رجال ، أو زمانًا دون زمان ، إنما جعل الخير في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ،

إلى يوم القيامة ، وفتح باب الاجتهاد والنظر أمامهم إلى يوم الدين.

الوقفة الرابعة : لقد صار الصحابة (رضوان الله عليهم) على نهج النبي (صلى الله عليه وسلم) من بعده ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يبعث برسالته التاريخية في القضاء إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) ، وكان مما ورد فيها " من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعري : أما بعد ، فإنَّ القضاء فَريضةٌ محكمة وسُنّة متّبعة ، فافهَمْ إذا أُدْلِيَ إليك فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحقّ لا نفاذَ له ، آسِ بين الناس في مجلسك ووَجهك حَتَّى لا يطمَعَ شريفٌ في حَيْفك ولا يَخافَ ضعيفٌ من جَورك ... الفَهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك ممّا لم يبلغْك في كتاب اللَّه ولا في سنَّة النبيّ (صلى الله عليه وسلم) ، اعرف الأمثالَ والأشباه وقِسِ الأمورَ عند ذلك ثم اعمِد إلى أحبِّها إلى اللَّه وأشبَهِها بالحقّ فيما ترى .

ولم يطلب عمر (رضي الله عنه) من أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) التوقف حتى يرجع إليه ، كما أنه لم يطلب منه حتى جمع الناس على المسألة ، وإن كان ذلك مما هو مستحب ومندوب فيما يحتاج إلى ذلك ، غير أن ولي الأمر أو المجتهد إنما يفعل ذلك متى احتاج إليه ، مع تأكيدنا على أن رأي الحاكم يقطع الخلاف في المختلف فيه للمصلحة المعتبرة في ضوء المقاصد العامة للشرع الحنيف .

*   *   *

الفتوى بين الإتاحة والمنع

ما أغنانا في الأوقات الصعبة عن إثارة الجدل ، وما أحوجنا إلى العمل ، والاجتماع على كلمة سواء لا تألو على شيء سوى وحدة الصف، في ضوء الحفاظ على ثوابتنا الشرعية التي لا نقبل المساس بها ، بل إن مهمتنا هي الحفاظ عليها ، ونشر صحيح الأديان التي لا غنى للإنسان عنها ، مؤكدين أن الفهم الصحيح الواعي للأديان هو دائمًا جزء من الحل ولا يمكن أن يكون أبدًا جزءًا من المشكلة ، إنما المشاكل هي في سوء الفهم ، أو التوظيف النفعي للدين ، والخروج به عن وظيفته التي أنزل وشرع لأجلها وهي هداية الناس وخير البشرية ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله تعالى .

وفيما يتصل بما أثير حول موضوع الفتاوى فنحن جميعًا مع ضبط الفتاوى ، وندرك خطورة الفتوى غير المنضبطة وأثرها في إثارة الجدل وما قد يترتب على بعض الفتاوى الشاذة من مخاطر قد تعصف بمجتمعنا، وما هذه الجماعات الإرهابية إلا نتاج فتاوى شاذة مضللة .

وإنني لأناشد مجلس النواب الموقر سرعة إخراج قانون الفتاوى الذي تَوَافَقَ عليه الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف ودار الإفتاء المصرية بإجماع في اجتماع اللجنة الدينية في مشروع قانون أراه شديد التوازن وضعًا للأمور في نصابها ، وليكون أي تصرف تصرفًا صحيحًا مبنيًّا على أسس قانونية لا على مجرد رؤى ، وأؤكد على الآتي:

١- أن أمر الفتوى جلل ، وشأنها خطير ، وأن أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كان كل واحد منهم يتمنى لو أن غيره كفاه أمرها .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا عرض له أمر عام من شئون الدولة جمع أهل العلم من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليروا فيه رأيهم ، ثم يختار هو من بين هذه الآراء ما يراه محققًا للصالح العام.

وعليه فإن هناك مسائل تحتاج إلى اجتهاد جماعي مؤسسي لا إلى رؤى فردية ، فإذا ما حُسم الأمر ورأى فيه الحاكم رأيه في الاختيار من بين الآراء المتعددة التي يعرضها أهل العلم ، فصارت في عصرنا الحديث قانونًا ، قيل هنا : إن اختيار الحاكم يقطع الخلاف في المختلف فيه ، فتصير عليه الفتوى في هذا القطر ويحاسب من يخرج عليها وإلا لصارت فوضى وفتنة .

٢- إذا كنا نبحث عن الوسطية في كل شيء دون إفراط أو تفريط فإن الوسطية ليست كلامًا ولا ادعاء ، إنما يجب أن نتبناها قولاً وعملاً وتطبيقًا ومنهج حياة ، ففي الوقت الذي أكدنا وما زلنا نؤكد وسنظل نؤكد على منع غير المؤهلين وغير المتخصصين في الخطاب الديني من الخطابة والإفتاء على حد سواء ، احترامًا للتخصص ولطبيعة الخطاب الديني ، فإننا نرى في الوقت نفسه أن التضييق على المتخصصين يعد إقصاءً يذهب

إلى أقصى الطرف النقيض من المعادلة ، وهو جانب الغلو والإفراط غير المقبول في الاحتياط .

وأرى أن الأمثل في الظهور الإعلامي لجميع المتخصصين في جميع المجالات والعلوم هو الإتاحة ، ويكون الاستثناء هو المنع على أن يكون مبررًا ومسببًا ، وأن تقوم المؤسسات الدينية من خلال مراصدها وإدارتها المختصة بتشكيل لجان لمتابعة ما يبث وما ينشر إعلاميًّا حول الشأن الديني ، وتتخذ كل مؤسسة من الإجراءات الإدارية والقانونية تجاه أي تجاوز يصدر من أي من المنتسبين إليها في هذا الشأن ما تراه مناسبًا أو رادعًا ، كما تقوم بمخاطبة المجلس الأعلى للإعلام بخطاب يمنع من ترى منعه للمصلحة العامة مبررًا بأسباب المنع ، حتى لا يخرج الأمر عن سياقه .

٣- أن نتخذ جميعًا كل الحذر ، ونتعاون أقصى درجات التعاون لمنع تسلل عناصر الجماعات الإرهابية المتطرفة وفي مقدمتها جماعة الإخوان الإرهابية إلى عقول المجتمع عبر تسلل بعض عناصرها إلى وسائل الإعلام ، وإذا كان تسلل بعض عناصر الجماعة إلى وسائل الإعلام على إطلاقه أمرًا خطيرًا فإن تسلل هذه العناصر إلى بعض برامج الخطاب الديني هو الخطورة نفسها ، لأن بضاعة هذه الجماعات الإرهابية هي المتاجرة بالدين ، ولبس مَسوح المتدينين ، ومخادعة المجتمع بتسويق أنفسهم أنهم حماة

الدين والفضيلة مستغلين عملية التدين الفطري وحب الناس لدينهم ، فتجد لبعضهم غمزًا هنا ولمزًا هناك انتظارًا أو ترقبًا وتحينًا لفرصة الانقضاض على الدولة ، لأن هذه الجماعات ربّت عناصرها المجرمة على الكفر بالوطن ، فهي لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية ، وترى المجتمع جاهلا جاهليًا ، لتنتقل من التجهيل إلى التكفير إلى التفجير ، وهْمًا منها أن هذا هو الطريق إلى السلطة التي تسعى إليها حتى لو كان ذلك على حساب الدين والوطن أو دماء الخلق ، وهو ما يجب أن نحذر منه ، وأن لا نكون سلبيين تجاه تسرب بعض عناصر الجماعة المتطرفة إلى وسائل الإعلام عبر منصات الإفتاء أو تجديد الخطاب الديني .

* * *

الفتاوى المضللة في زواج القاصرات

لا شك أن الشرع قائم على مراعاة مصالح البلاد والعباد ، فحيث تكون المصلحة المعتبرة فثمة شرع الله .

وإذا كان العرف ضابطًا معتبرًا لدى الفقهاء فإن العرف لا يقصد به العرف الخاص لكل قبيلة أو عزبة أو قرية أو نجع أو تجمع على حدة ، إنما هو العرف العام الذي تعارف عليه القوم وإن لم يُسنُّوه قانونًا ، فما بالكم إذا تعارف عليه القوم وسنوه قانونًا أو أقرته مجالسهم النيابية في ضوء الدستور الذي اصطلحوا عليه وارتضوه لتسيير شئون حياتهم وتنظيم حركتها ، ناهيك عما قرره الشرع من حق الحاكم في تقييد المباح للمصلحة المعتبرة بما لا يتعارض مع نص صريح قطعي الثبوت والدلالة.

والقضية التي نحن بصددها واحدة من القضايا الحياتية التي لم يرد في بيان تحديد سن الزواج فيها نص قاطع ، لا من صريح القرآن ولا من صحيح السنة ، فصار فيها متسع للاجتهاد والرأي والرأي الآخر وفق ما تقتضيه المصلحة ، على أن فقه الموازنات وحسابات المصالح والمفاسد ، وترجيح ما يجب ترجيحه منها يتطلب منا نظرات متأنية لا نظرة واحدة قبل أن نصدر أي فتاوى في هذا الشأن ، بل أرى أن أمر الفتاوى في مثل هذه القضايا يحتاج اجتهادًا جماعيًّا للمؤسسات المعتبرة لا اجتهاد الأشخاص أو الأفراد ، ولا سيما إذا كان بعض هؤلاء الأشخاص أو الأفراد بمعزل عن استيعاب قضايا العصر ومستجداته ، بل فما بالكم إذا كانوا أو كان بعضهم بمعزل عن قواعد الإفتاء وأصوله أصلاً ؟ بل فما

بالكم إن كان من يفتي في الشأن العام غير المتخصصين أو حتى من غير الدارسين للأصول الشرعية على وجهها المطلوب إن لم يكن من غير الدارسين لها أصلا .

ولا شك أن إصدار مثل هذه الفتاوى لا يمكن أن تستند فقط إلى محصولنا مما قرره بعض الفقهاء في عصور وظروف وبيئات تغيرت طبيعتها تغييرًا كبيرًا في زماننا ومكاننا وبيئتنا ، وأصبح من يتصدر للإفتاء في مثل هذه الأمور والقضايا المعاصرة في حاجة ملحة إلى أن يلم إلى جانب أصول وقواعد فقه الأحكام بفقه العصر والواقع ومستجداته وتداعياته وتحدياته وظروفه الاجتماعية والاقتصادية والصحية ، بما يتطلب ضرورة الاستئناس بآراء الخبراء المختصين من الأطباء والاقتصاديين وعلماء النفس والاجتماع ، بل إننا قد نكون بحاجة ماسة لنظرة أوسع نحو ما يدور حولنا في مختلف دول العالم والتزامات الدول وتعهداتها في ضوء ما وقعت عليه من مواثيق دولية ، لأن الاستطاعة كما ينظر فيها إلى حال الأفراد ينبغي أن ينظر فيها أيضًا إلى أحوال وقدرات الدول.

وإذا كان الفقهاء قد تحدثوا عن الباءة وهي القدرة على الوفاء بحق الزواج فإن الأمر بلا شك لا يمكن أن يحصر أو يقصر في القدرة والطاقة الجنسية ، إنما هو القدرة العامة على قيادة سفينة الحياة الزوجية بما تقتضيه وتتطلبه من تبعات اقتصادية ، ومسئوليات اجتماعية نظلم أبناءنا وبناتنا ظلمًا كبيرًا إن حملناهم إياها دون احتمالهم لها أو قدرتهم على هذا الاحتمال أو حتى مجرد إدراكهم لما يقتضيه واجب كل من

الزوجين تجاه الآخر من حقوق وواجبات ومسئوليات ، وما لم نهيئ لهم ما يغلب على الظن معه على أقل تقدير نجاح هذا الارتباط ، وإلا فما سرّ حالات الطلاق المرتفعة بين الشباب المتزوجين حديثًا إن لم يكن عدم تأهيلهم وتهيئتهم بالقدر الكافي وإدراك كل منهم لما تتطلبه وتقتضيه حقوق بناء الأسرة السوية كأساس لبناء مجتمع سوي متماسك قادر على صنع الحضارة واقتحام عباب الحياة الصعبة .

ولا شك أن الزواج مسئولية كبيرة ، وميثاق غليظ ، شرعه الإسلام ليسكن كل من الزوجين إلى بعضهما البعض في مودة ورحمة ، كما قال ربنا سبحانه : {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }، فلابد من التأكد من أن كلا من الرجل والمرأة في سن قادر على تحمل أعباء وتبعات هذه العلاقة الزوجية .

*　　*　　*

نحو إعلام ديني رشيد

الإعلام صناعة وفن ورسالة ، ولا ينكر دوره وأهميته إلا مغيب عن الواقع ، وقد سلك الإعلام في العقود والسنوات الأخيرة دروبًا ومسالك عديدة ، وصارت الدول العظمى تتخذ منه أكبر سلاح بتار في تأديب خصومها ، فقد أخذت التكتلات الإعلامية تشق غمار الكون وعباب محيطاته الواسعة ، شأن الشركات متعددة الجنسيات عابرة الحدود والقارات ، في محاولة السيطرة وبسط النفوذ ، في عالم لا مكان فيه لغير الأقوياء والنافذين.

وإذا كان لكل شيء قيمه وضوابطه ومواثيق شرفه فإن الإعلام الديني يجب أن يكون في المقدمة من ذلك كله ، لطبيعته الخاصة ، ولكونه أحد أهم المكونات الثقافية للمجتمع ، ولكونه أحد أهم عوامل التواصل في الخطاب الديني من جهة الانتشار على أقل تقدير.

وإذا كنا نبحث عن خطاب ديني رشيد فلا بد أيضًا وفي المقدمة أن نهيئ مناخًا إعلاميًّا رشيدًا للخطاب الديني ، وأول ركائز هذا الخطاب هو اختيار الشخصية التي ستقوم بتقديم الخطاب الديني ، بحيث تكون شخصية مثقفة ملمة بأساسيات الخطاب الديني ، معروفة بوسطيتها واتزانها دون إفراط أو تفريط ، لأن مقدم أي عمل مهما كانت مهنيته فإن ملامح شخصيته وتكوينه الثقافي سيكون أحد أهم المؤثرات في توجيه الخطاب أو توجيه الضيوف أو إدارة الحوار أو طريقة طرح الأسئلة والتعقيب على المناقشات ، وكلما كان المقدم موضع تقدير غير محسوب

على أي اتجاه من اتجاهات الإفراط أو التفريط كلما استطاع أن يجمع الناس حول فكرته بعيدًا عن الاستقطاب والاستقطاب المضاد.

ثم يأتي أمر اختيار الضيوف ، ولنا عدة ملاحظات :

أولها وهو الخطأ الأفدح الذي يتمثل في استضافة أناس غير متخصصين ولا علاقة لهم بالشأن الديني من الدخلاء الذين يقحمون أنفسهم بلا مؤهلات على عالم الدعوة والفتوى ، على أن ثمة فرقا بين من يعبر عن رأيه الشخصي وبين من يُسوِّقُ نفسه على أنه أحد علماء الدين ، وإن كان أكثر هؤلاء الدخلاء لا يعنيه سوى الظهور أمام أتباعه حتى لو علم مسبقًا أنه سيتعرض لكشف حقيقته أو لشيء من الحرج ، لأن كل ما يعنيه هو وضع قدمه في هذه المنطقة وإثبات أن رأيه مما يستمع إليه في عالم الفتوى والدعوة ، وأنه يقف على مسافة مقابلة أو موازية لأهل العلم الحقيقيين ، وهو ما يعطيه مساحة أوسع لدى المخدوعين فيه أو التابعين له أو المنتفعين من تأييده .

الخطأ الثاني : هو عندما يكون الحديث في صورة الاتجاه المعاكس فإن المواجهة في كثير من الأحوال لا تكون بين الغلو والاعتدال ، ولا بين التفريط والاعتدال ، إنما تكون بين أقصى الغلو وأقصى التفريط ، مما يعطي أنموذجًا سيئًا للمتحدثين باسم الفكر الديني ويزيد كل طرف من طرفي النقيض تمسكًا بقناعاته بأصحابه ، هروبًا من الذهاب إلى أقصى الطرف الآخر المناقض لأيدلوجياتهم ، وفي هذا يجب أن يكون الوسط والاعتدال حاضرًا في أي مناقشة موضوعية ، وأن ننأى عن

استضافة الأطراف الشاذة المنفرة ، سواء من أقصى اليمين أو من أقصى الشمال.

الخطأ الثالث : مبادرة بعض الصحف أو المواقع إلى نشر بعض الآراء والفتاوى الشاذة لبعض المحسوبين على بعض التيارات المتطرفة ، وربما بحسن نية لكشفهم ، غير أن التحليل النفسي يؤكد أن بعض هذه الشخصيات ربما تعمد إلى الإثارة لتكون حاضرة على الساحة لا أكثر ولا أقل ، حتى لو كان وجودها على سبيل هجائها أو النيل منها ، لأنها تريد أن تكون موجودة فحسب بغض النظر عن طريق وجودها ، ولو أننا أهملنا هذه الظواهر لماتت من تلقاء نفسها ولما تجرأ أمثالها على هذا الشذوذ .

على أنني أؤكد أن هذا الطرح قابل للنقاش ، للرأي والرأي الآخر ، فأنا لا أُخطِّئ الآخرين في مسالكهم أو رؤاهم فيما هو قابل للحوار والنقاش ، ولا أريد أن أحمل أحدًا على اتجاه واحد ، إنما أعرض رؤية أراها من وجهة نظري ربما تسهم في غلق كثير من أبواب فوضى الخطاب الديني ، وأنها جديرة بالنقاش والحوار على أقل تقدير ، مع احترام كل الآراء ولو تباينت الرؤى.

*   *   *

الإعلام الكاشف والإعلام الباني

لا شك أن الإعلام واحد من الأسلحة العصرية في المعارك والقضايا الفكرية والثقافية وتجييش الرأي العام أو تهيئته ، وأن فقه المرحلة يحتاج إلى التوازن بين الإعلام الكاشف والإعلام الباني ، فلا يمكن لأحد أن ينكر دور الإعلام الرشيد في بناء المجتمعات والدول بصفة عامة وبناء الفكر الرشيد بصفة خاصة ، كما لا يمكن لأحد أن يتجاهل خطر استخدام بعض وسائل الإعلام ومواقع التواصل في العمل على هدم الدول أو إفشالها ، وبخاصة من تلك المنظمات أو الدول الراعية للإرهاب.

الإعلام بصفة عامة جزء من الوطن ومن أهم مكوناته ، والإعلاميون هم نخبة من أبنائه ومثقفيه ومستنيريه ، فمن يبصّر بقضايا الوطن الحقيقية ويواجه مخططات أعدائه إن لم يكونوا هم في الطليعة من ذلك ؟

الإعلام الرشيد جزء من الحل وليس جزءًا من المشكلة ولا يمكن أن يكون ، كما أننا نؤمن بأن الإعلام ليس جهازًا تنفيذيًّا لأي دولة تنحصر مهمته في التسويق لإيجابياتها ، فإن مهمة الإعلام أكبر من ذلك بكثير ، فله إلى جانب مهامه في التوعية والبناء مهام رقابية كاشفة لا تقل أثرًا عن دور كثير من الجهات الرقابية التي تعمل على مواجهة الفساد بكل صوره وألوانه ماديًّا كان أو معنويًّا ، وليس لأحد أن يعمل على تجريد الإعلام من اختصاصاته أو يعمل على تحويله عن طبيعته أو يصرفه عن مهامه ، إلا إذا كان لديه ما يخشى من المواجهة به ، غير أن ثمة فرقًا

كبيرًا وشاسعًا بين الإعلام الموضوعي والإعلام الإثاري.

ونرى أن الإعلام الرشيد لا يمكن أن يقوم على مجرد تصيد الأخطاء أو حتى مجرد رصدها وينتهي دوره عند هذا الحد معتبرًا الإثارة غاية لا وسيلة.

الإعلام الرشيد هو ذلكم الإعلام الذي يسهم في اقتراح الحلول ، ومعالجة المشكلات ، ويهيئ الطريق وينيره أمام القائمين على شئون البلاد والعباد والمؤسسات ، وهو الذي يَذكُر الإنجاز كما يُبرِز الإخفاق ، والذي يشد على عضد المجتهدين كما ينعي باللائمة على المقصرين.

الإعلام الرشيد هو الذي يعي طبيعة كل مرحلة وما تقتضيه المصلحة الوطنية ، واختيار الأوقات المناسبة لمعالجة القضايا .

الإعلام الرشيد يعني الموضوعية دون تهويل أو تهوين أو إفراط أو تفريط .

الإعلام الرشيد هو الذي يسمو صاحبه فوق الانطباعات الشخصية إلى درجة المعالجة الموضوعية ، وهو الذي ينصف المختلف معه عندما يحسن أو يكون الحق في جانبه ، كما ينصف المتفق معه أو حتى الموالي له ولا سيما إن كانت الصحيفة حزبية أو خاصة.

الإعلام الرشيد هو الذي يحدد أهدافه ويعمل على تحقيقها ، ويرتب أولوياته ويعمل على إنجازها، ويتخذ من كل ما يؤدي إلى البناء والتعمير ومواجهة الفساد والانحراف ومحاولات إفشال الدولة خطا ثابتًا .

ذلكم هو الإعلام الذي نفخر به عندما نطلق عليه مصطلح الإعلام

الوطني ، أو الإعلام الرشيد ، أو الإعلام النبيل ، أو الإعلام الهادف ، أو الإعلام البناء ، وذلكم هو الذي يبقى ويضمن لصاحبه أو لمؤسسته خلودًا حقيقيًّا لا زيف فيه .

وحتى إعلام المعارضة فهناك المعارضة المنصفة الشريفة التي تقول لمن أحسن أحسنت ولمن قصر قصرت ، لا إعلام التصيد والتنكر وقلب الحقائق الذي يعمل على قلب الحسنات إلى سيئات على نحو ما نرى من إعلام الجماعات الإرهابية ، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى إعمال آلة إعلام البناء في مواجهة آلات إعلام الهدم ومحاولات إفشال الدول.

وعليه فإننا نحذر من الانسياق خلف إعلام جماعة الإخوان الإرهابية ، وكتائبها الإلكترونية ، وأبواقها الإعلامية ، وكل من يسير في كنفها على طريق الهدم ، والتشويه ، والكذب والافتراء ، وقلب الحقائق ، بل إن واجبنا أن نتعاون على كشف هؤلاء المجرمين وفضحهم وبيان عمالتهم وخيانتهم ، وأن نحذر بوضوح وشفافية من هؤلاء الخونة العملاء المأجورين ، ومن أبواقهم ومواقعهم المحرضة على الفتن ، وهدم الأوطان ، وخدمة مخططات الأعداء { وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.

* * *

أخطاء وخطايا في تناول الخطاب الديني

لا شك أن أي تغيير أو تجديد في تناول قضايا الخطاب الديني عبر تاريخ البشرية لا يمكن أن يكون موضع إجماع أو اتفاق قبل الاختبار لمدد أو فترات زمنية تطول وتقصر وفق قناعات المجددين وصمودهم واجتهادهم وقدرتهم على الإقناع برؤاهم الفكرية الجديدة ، وأن التقليديين والمحافظين والمستفيدين من الأوضاع المستقرة لا يمكن أن يسلموا بالسرعة والسهولة التي يطمح إليها المجددون ، وبمقدار عقلانية المجددين وعدم شطط المحسوبين عليهم في الذهاب إلى أقصى الطرف الآخر يكون استعداد المجتمع لتقبل أفكارهم ، بقطعهم الطريق على أصحاب الفكر الجامد والمتحجر من طعنهم في مقتل ، غير أن الوسطية التي نبحث عنها جميعا ويدعيها كل فريق لنفسه صارت حائرة غاية الحيرة بين طرفي النقيض .

ويأتي تناولنا لهذا الموضوع من ثلاثة جوانب عامة هي : مفهوم المقدس ، وخطورة الخروج عن الموضوعي إلى الشخصي ، وحرية المعتقد وحدود حرية الرأي .

الجانب الأول، وهو مفهوم المقدس والنظرة إليه ما بين مقدس للقديم على إطلاقه لمجرد قدمه ، بحيث يكاد ينزل أقوال بعض الفقهاء منزلة النص المقدس حتى تلك الأقوال التي ناسبت زمانها ومكانها وعصرها وأصبح واقعنا يتطلب اجتهادًا جديدًا يناسب عصرنا ومعطياته ومتطلباته، حتى رأينا من يكاد يقدس أقوال بعض المفسرين والمؤرخين

وما ورد بكتب الأنساب ، وكتب السير والملاحم ، على علات بعضها .

وفي أقصى الطرف الآخر نجد من يتطاول تطاولا سافرًا على أمور هي من الثوابت أو في منزلتها على الأقل ، متخذًا من شعار التجديد الذي يصل عند البعض إلى درجة الهدم مجالاً للاعتداء على الثوابت ، قد يكون عن ضيق أفق أحيانا ، أو عن نفعية وسوء قصد لا نثبته ولا ننفيه؛ لأن القلوب بيد الله (عز وجل) ، والنيات عنده مرجعها ومقصدها .

ومع تأكيدنا الشديد الملح والمتكرر أننا في حاجة إلى التجديد وإعمال العقل، وأننا ضد الجمود الفكري والتحجر عند القديم والتمترس عنده وغلق باب الاجتهاد وضيق الأفق أو انغلاقه أو انسداده ، وضد تكفير المثقفين أو اتهامهم في وطنيتهم إلا بحكم قضائي نهائي وباتّ ، فإنني أذكر أن جميع أصحاب المعتقدات لا يقبلون النيل من ثوابتهم ولا الاعتداء عليها حتى ولو كانت بيّنة البطلان بالعقل والنقل عند غيرهم.

الجانب الثاني وهو من أكبر أخطاء وخطايا تناول الخطاب الديني : الخروج من الموضوعي إلى الشخصي والإسفاف إلى درجة ما يشبه السباب والسباب المتبادل إن لم يكن سبًّا وقذفًا صراحًا ، سواء فيما بين المتحاورين أم المتناظرين بالتطاول على العلماء والمفكرين ، فعندما يتحدث أي مفكر في قضية موضوعية مراعيًا أدب الحديث وأدب الحوار وأسس النقد العلمي الموضوعي وأصوله فهذا تعبير عن الرأي يقابل ويناقش بالحجة والرأي والعقل والمنطق ، أما عندما يخرج هذا

المفكر أو الباحث أو الناقد عن التناول الموضوعي إلى التطاول على الأشخاص سواء أكانوا من المعاصرين أم من أصحاب الرأي والفكر والأثر في تراثنا الديني أو العلمي أو الثقافي فإن ذلك يُعدُّ أمرًا غير مقبول، وقد لا يمكن الصبر أو السكوت عليه ، وقد سيكون مسار استفزاز لمن هم على قناعة واعتداد بفكر هؤلاء الرجال ، وقد ينبري لهم بعض من يرون أن الدفاع عن هؤلاء العظماء واجب شرعي أو عقلي أو إنساني ، وتحدث معركة كلامية أو جدلية جديدة ، أو قديمة متجددة ربما تشغل الساحة عن رؤى أهم ، وقضايا أولى بالتناول في تلك المرحلة الفارقة من تاريخنا الوطني .

أما الجانب الثالث فهو ما يتصل بالفهم الصحيح والفهم الخاطئ لحرية الرأي ، فإننا نفرق بين حرية المعتقد وحرية الرأي ، كما نفرق بين الحرية المنضبطة بضوابط الشرع أو العقل أو القانون وبين الفوضى التي لا حدود لها ، فمع أن ديننا الحنيف لم يحمل الناس حملا أو إكراها على الدخول فيه ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}(البقرة: ٢٥٦) ، ويقول عز وجل : {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ}(هود: ١١٨)، ويقول سبحانه : {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}(القصص: ٥٦)، ويقول سبحانه : { إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ}(الشورى:٤٨) ، ويقول سبحانه: { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا

خَاضِعِينَ} (الشعراء: ٣،٤)، فقد أصَّل الإسلام لحرية المعتقد تأصيلاً واضحًا يؤكد سماحته وسعة أفقه ، لكن هذا شيء ، ومفهوم حرية الرأي الذي لا ينبغي أن يصبح انفلاتا أو تطاولاً على الثوابت أو المقدسات أو الأشخاص باسم حرية الرأي شيء آخر ، على أننا في حاجة ملحة إلى العمل لا الجدل ، وأن نجتمع على المتفق عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما يقبل الرأي والرأي الآخر من المختلف فيه ، وألا ننجرّ إلى لغة السب والقذف ، أو السباب المتبادل وما يشبهه حفاظا على الذوق المجتمعي العام ، الذي لا يقبل عقلاؤه الإسفاف الذي يُعد غريبا على ذوقنا وقيمنا وحضارتنا العربية والإسلامية الأصيلة الراقية .

* * *

الزينة والجوهر

كثير من الناس ينخدعون بالزينة والطلاء عن المعدن والجوهر ، وعلى الرغم من تأكيدنا أننا نحتاج إلى حسن المظهر ، وإلى حلاوة اللفظ وجمال المعنى ، وعظمة الشكل والمضمون معًا ، لأنهما كالروح والجسد الذي لا غنى لأحدهما عن الآخر ، ولا قيام له دونه ، فإن النظرة إليهما يجب أن تكون متوازنة ، وأن نعطي كلا منهما قيمته وقدره ونسبته دون شطط أو تجاوز أو إفراط أو تفريط ، فلا يأخذ الشكل أو المظهر أكثر مما يستحق ولا دون ما يستحق ، وكذلك الأمر بالنسبة للمبنى والمعنى.

لكن الحذر هو أن ننخدع بالمظهر وحده ، فقد يحمل الإنسان في يده سيفًا ويقلده من الذهب والفضة ونفائس العقيان ما يظن أنه رافع من قيمته وشأنه ، ويحيط نفسه بهالة من السيوف والدروع ، غير أنه إذا كان مع ذلك جبانًا أو خائر القوى فلن تغني عنه دروعه ولا سيوفه يوم الروع شيئًا ، ويظل البطل رابط الجأش قوي الشكيمة فوق كل جبان ، مهما تحصن الجبناء بظواهر الأشياء أو مظاهرها الخادعة.

إن التوازن مطلوب في كل شيء غير أن الجوهر يظل جوهرًا ، والمظهر يظل مظهرًا ، وما أجمل أن يجتمع للإنسان المظهر والجوهر معًا، على حد قول الرافعي (رحمه الله) : إن خير النساء من كانت على جمال وجهها ، في أخلاق كجمال وجهها ، وكان عقلها جمالاً ثالثًا ؛ فهذه إن أصابت الرجل الكفء ، يسرت عليه ، ثم يسرت ، ثم يسرت ؛ إذ تعتبر نفسها إنسانًا يريد إنسانًا ، لا متاعا يطلب شاريًا ، وهذه لا يكون رخص

القيمة في مهرها، إلا دليلاً على ارتفاع القيمة في عقلها وأدبها ودينها ، فالمرأة للرجل نفس لنفس ، لا متاع لشاريه ؛ والمتاع يقوَّم بما بُذل فيه إن غاليًا وإن رخيصًا ، ولكن الرجل يقوم عند المرأة بما يكون منه ؛ فمهرها الصحيح ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تحمل إلى داره ، ولكنه الذي تجده منه بعد أن تحمل إلى داره ، مهرها معاملتها ، تأخذ منه يوما فيوما ، فلا تزال بذلك عروسا على نفس رجُلها ما دامت في معاشرته.

أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق العروس الداخلة على الجسم لا على النفس ، أفلا تراه كالجسم يهلك ويبلى ، أفلا ترى هذه الغالية – إن لم تجد النفس في رَجُلها – قد تكون عروس اليوم ومطلقة الغد ؟!

فإذا انتقلنا إلى التدين الحقيقي الصحيح والتدين الشكلي أو السياسي نجد أن ظاهرة التدين الشكلي والتدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية ، سواء من هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر ، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة ، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل ، ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعد أحد أهم معالم الهدم والتنفير ، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات ، أو الكذب ، أو الغدر ، أو الخيانة ، أو أكل أموال الناس بالباطل ، فإن الأمر هنا جد

خطير ، بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين ، ألم يقل نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خُلَّة منهن كانت فيه خُلَّة من نفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا وعَدَ أخلف، وإذا خاصم فَجَر) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إن شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه) ، وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : "من أبدى فوق ما في قلبه فهو منافق".

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس وبخاصة العامة لدينهم ، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله (عز وجل) والعمل على نصرته والتمكين له .

وعلينا أن نفرق وبوضوح شديد لا يقبل الالتباس بين التدين الحقيقي الخالص لله (عز وجل) وهو ما نسعى إليه ، ونسأل الله أن يهدينا إليه وبين التدين الشكلي المظهري الذي تحاول الجماعات المتطرفة من خلاله تسويق أنفسها على أنها حامية الدين .

* * *

خطورة الكيانات الموازية

عمد مؤسس الجماعة الإرهابية التي أطلقت على نفسها جماعة الإخوان إلى تأسيس الكيانات الموازية لكيانات الدولة قصد ضرب المؤسسات الرسمية للدول وإحلال الكيانات الموازية التابعة للجماعة محلها ، فأسس الكيان الدعوي للجماعة الإرهابية في محاولة إحلاله محل الأزهر الشريف ومؤسساته الدعوية ، وفي سبيل ذلك عمدت الجماعة إلى تشويه صورة علماء الدين بالمؤسسات الرسمية من الأزهر الشريف وعلمائه ، وعلماء وأئمة الأوقاف والإفتاء ، حتى يخلو لهم الجوّ لغسل عقول الناس ونشر أيدلوجياتهم وفلسفاتهم المدمرة ، واللعب على عواطف العامة بأنهم حماة الدين وحماة الشريعة ، وأنهم رعاة تطبيقها دون سواهم ، مع رمي المجتمعات بالفسق والكفر أو البغي أو الجاهلية ، مستشهدين بظواهر نصوص دون أن يفهموا معناها أو سياقها أو مقصدها أو مرماها ، ليجندوا بذلك عناصر تتبعهم سياسيًّا وتسهم في تقوية جماعتهم وتحقق مطامعها ، وأخذوا يبثون في الناس أن العلماء الرسميين لا يتقون الله وليسوا محل ثقة ، وأخذوا يزجون بعناصرهم غير المؤهلة في العمل الدعوي ، حتى رأينا بعض عناصر الجماعة وبعض حلفائها يصفون في سفاهة وحمق أنفسهم بالعلماء الربانيين ، ويصفون غيرهم بعلماء الدنيا أو السلطان جهلا وحمقًا ومغالطة وافتراء على خلق الله وعباده .

وإلى جانب الكيانات الدعوية الموازية عمدت الجماعة إلى تكوين كيان عسكري مسلح تحت مسمى الجناح العسكري أو الجناح الخاص لجماعة الإخوان المسلمين ، فلما افتضح أمرهم بما ارتكبوه من حماقات واغتيالات وتفجيرات وإفساد في الأرض أخذوا يُغيِّرون سياساتهم بإنشاء كيانات عسكرية لا ترتبط باسم الجماعة ، كجماعة حسم الإرهابية وغيرها ، ثم أخذوا يتوسعون في الكيانات الاجتماعية والمجتمعية والتعليمية فدخلوا في مجال إنشاء المستشفيات ، والمدارس وتوسعوا غاية التوسع في محاولة اختراق بعض الجمعيات إضافة إلى التجمعات والتكتلات السرية التي تعمل على جمع الأموال من الناس فتذهب لخدمة عناصر الجماعة وتسليح الجناح المسلح لها ، مما يجعلنا نحذر المخدوعين بأعمال هذه الجماعات والكيانات الإرهابية بأن ما يدفعونه لها قد يرتد رصاصة غدر في صدورهم أو صدور أبنائهم أو صدور المجتمع ، مما يجعلنا نحذر كل التحذير من خطر التبرع لصالح هذه الجماعات التي تعد خطرًا داهمًا على أمن وسلامة الفرد والمجتمع والوطن .

وأؤكد أن وجود أي سلطات موازية في أي دولة ، أو وجود جماعات ضغط ذات مصالح خاصة بها ، أيًّا كان شكل هذه السلطات والجماعات ، فإن ذلك يُشكل خطرًا على بنيان الدول وتماسك كيانها ، وبخاصة تلك السلطات التي تتستر بعباءة الدين وتحاول أن تستمد قوتها ونفوذها من خلال المتاجرة به .

والمقياس الوحيد الذي تقيس به أي دولة أو مجتمع مدى وجود سلطات موازية أو عدم وجودها ، هو مدى قدرتها على إنفاذ القانون على الجميع وبلا أي حسابات أو استثناءات وبلا تردُّدٍ أو توجُّسٍ ، وألا يُسمح لأي جماعة أو شخص بالتمترس بأتباعه للالتفاف على القانون أو تعطيله بالقوة على نحو ما كان يحدث عام الأهل والعشير الأسود ، وأن يسلك الجميع الطرق القانونية في التعبير عن مطالبهم ، وأن يلتزموا بما تقتضيه القوانين واللوائح المنظمة في كل مجال من المجالات ، مؤكدين أننا لا نجيز الاحتيال على القانون ، وأن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة الذي تنطلق منه جماعات التطرف قد انحرف بالمجتمع عن جادة الصواب وهوى به إلى مزالق خطيرة كادت تعصف به ، مما يجعلنا نحذر وبقوة من محاولات بعض الكيانات العودة إلى الفكر الإخواني الإرهابي في محاولات إنشاء كيانات موازية لكيانات الدولة وهو ما يجب التصدي له بكل قوة وحسم حفاظًا على هيبة الدولة الوطنية ومصلحتها المعتبرة.

والخلاصة أن أي كيان يشعر بأنه فوق القانون وفوق المحاسبة ويصل الأمر إلى التحسس والتوجس من محاسبته يُعد سلطة موازية تشكل خطرًا أو ضغطًا على دولة القانون وعلى إنفاذه ، وأن تطبيق العدالة الشاملة على الجميع وبلا أي استثناءات هو الحل الأمثل لإنفاذ دولة القانون ، وهذا سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : (إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ

فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (صحيح مسلم) .

وهذا سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) يقول عند توليه الخلافة : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي ، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ، الضَّعِيفُ فِيكُمُ الْقَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ " .

فبالعدالة الشاملة وغير الانتقائية ، وبإنفاذ القانون على الجميع وإعلاء دولته ، واحترام سيادة القضاء ، يكون الأمن النفسي والاستقرار المجتمعي .

*　*　*

أدلجة العلماء والمثقفين

تعمل الجماعات المتطرفة على فرض أيديولوجيتها العقدية أو الفكرية أو المذهبية على المجتمع ، ولا يمكن أن يتأتى لها ذلك إلا من خلال محاولة استقطاب نخبة من العلماء والمفكرين والمثقفين ، وبخاصة المشهورين أو النابغين ، ليكونوا في مقدمة أدواتها لنشر أفكارها المضللة، والعمل على استقطاب وضم العديد من العناصر الجديدة إليها ، وتضع ذلك في مقدمة أولوياتها ، إذ تقدر كل جماعة من هذه الجماعات أن قوتها تُقاس بعدد عناصرها ، وقدرتها على الحشد والاستقطاب والتجنيد ، ومستويات الولاء ، فكلما كان الولاء لقياداتها أعمى رأت ذلك مصدر قوة لها ، ولا سيما تلك الجماعات التكفيرية التي تجند الإرهابيين للقيام بالعمليات الانتحارية والتفجيرية ، فإنها تريد مسخًا بلا عقل ، لا يناقش ولا يراجع ولا يفكر ، إنما يثق ويتلقى وينفذ .

وفي سبيل الوصول إلى ذلك تغلف الجماعات المتطرفة أعمالها بسياجات متعددة من السرية والكتمان ، وتعمل في عالم الخفاء ، فهم كالخفافيش التي لا تستطيع أن تحيا إلا في الظلام .

وتتخذ هذه الجماعات من أدلجة بعض العلماء والمثقفين وسيلة لأدلجة المجتمع أو أوسع قطاع ممكن منه ، وطبعه بطابعها ، أو إيمانه بأفكارها ، وعلى أقل تقدير تعاطفه معها ، وفي سبيل ذلك تبذل لهؤلاء من أدعياء العلم والثقافة من المكاسب والمصالح والمنافع ما يربطهم بها

برباط وثيق ، مع ما يعلمه هؤلاء من العقاب المنتظر لمن يفكر في الخروج على هذه الجماعات.

ومن ثمة كان لا بد من الحديث عن خطورة الأدلجة أو الوقوع في شراكها ، ونلخص ذلك في نقاط :

١- أن أكثر العلماء والمفكرين والمثقفين الذين وقعوا في براثن هذه الجماعات لم يستطيعوا الفكاك منها رغبًا أو رهبًا ، غير أنهم قد خسروا أنفسهم وحريتهم ، وانساقوا إلى طريق اللاعودة واللارجعة ، ولو على حساب دينهم أو بلدهم أو إنسانيتهم ، أو أي شيء آخر غير الولاء لهذه التنظيمات التي لا تعرف الرحمة بمن يفكر في الخروج عنها أو عليها.

٢- أن أي عالم أو مفكر أو مثقف يمكن أن تُشترى ذمته على حساب قضايا دينه أو وطنه لخائن للدين والوطن ، كما أن على الوطن أيضًا أن يحتضن علماءه ، ويبصرهم بالتحديات التي تواجهه ، وبما قد لا يقفون عليه من صعوبات وتحديات ؛ ليدركوا ما يمكن أن يغيب عنهم من فقه الواقع وتحديات الظرف الراهن ؛ لتنضبط رؤاهم وفتاواهم مع ما يتطلبه فقه هذا الواقع دون إفراط أو تفريط .

٣- أن العالِم أو الواعظ أو الإمام غير المؤدلج فكريًّا ، وبعبارة أكثر وضوحًا ومباشرة : غير المنتمي فكريًّا أو تنظيميًّا لأي جماعة كانت ، لهو سهل الرجوع إلى الحق والالتقاء معك في منطقة

وسط، وقابل لأن يسمع الرأي الآخر ، وألا يجادل إلا بالحق وبالتي هي أحسن ، وألا يدعو إلا بالحكمة والموعظة الحسنة، ومتى تبين له وجه الحق عاد إليه ، شاكرًا من رده إليه ردًّا جميلاً ، أما العالِم أو الواعظ أو الإمام أو الخطيب أو المفكر أو المثقف المؤدلج المنتمي فكريًّا أو تنظيميًّا لأي جماعة أو تيار فهو إما غير قابل للحوار أصلا ، أو غير قابل إلا للحوار الجدلي العقيم على طريقته هو التي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى طريق واحد هو ما يريد بك الوصول إليه وحملك عليه وإرغامك على فكرته ولو بالباطل ، وبكل ما يخالف العقل والمنطق.

٤- إذا كان الانتماء لهذه الجماعات يُشكل خطرًا داهمًا على النسيج الوطني وفي كل مفاصل الحياة ، فإن الأمر لهو أكثر خطرًا وأشد بلاء عندما يتعلق الأمر بالدين والفكر والتربية والهوية ، ولذا فإني أؤكد وسأظل أؤكد على عدم تمكين أي من المنتمين للجماعات المتشددة والمتطرفة لا من صنع القرار الديني ولا الفكري ولا الثقافي ولا التعليمي ولا التربوي ، ولا حتى مجرد التمكن من تشكيل العقول وبخاصة عقول النشء والشباب .

٥- أن ما تقوم به هذه الجماعات المتطرفة هو عين الجناية على الإسلام ، ذلك أن ما أصاب الإسلام من تشويه لصورته على أيدي هؤلاء المجرمين بسبب حماقاتهم لم يصبه عبر تاريخه

على أيدي أعدائه من التتار وغيرهم بما ارتكبوه من مجازر في الماضي وما يصيبه على أيدي داعش ، والقاعدة ، والنصرة ، وبوكو حرام ، وأضرابهم في الحاضر .

٦- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها ، أو تدمير بناها التحتية ، أو ترويع الآمنين بها ، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا .

*   *   *

السكان والتنمية

إذا كنا نؤمن إيمانًا حقيقيًّا بدور العلم وأهميته ، ودور التخطيط والدراسات المستقبلية في مجال التنمية ، فإننا لا يمكن أن نطلق أحكامًا غير مبنية على العلم والدراسة المتخصصة .

ونؤكد أن تصحيح المفاهيم الخاطئة فيما يتصل بالقضايا السكانية يدخل في صميم تجديد وتصويب الخطاب الديني وتصحيح مساره ، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) (متفق عليه) ، فاشترط (صلى الله عليه وسلم) الباءة التي تشمل القدرة على الإنفاق كشرط للزواج ، ومن باب أولى فهي شرط للإنجاب ، فما بالكم بالإنجاب المتعدد ؟! ألم يقل النبي (صلى الله عليه وسلم) : (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يقوت) ، وفي رواية (كَفي بِالمرْءِ إِثْماً أَنْ يُضَيّعَ مَنْ يَعُولُ) .

ولطالما أكدنا أن الكثرة إما أن تكون كثرة قوية منتجة متقدمة يمكن أن نباهي بها الأمم في الدنيا ، وأن يباهي نبينا (صلى الله عليه وسلم) بها الأمم يوم القيامة ، فتكون كثرة نافعة مطلوبة ، وإما أن تكون كثرة كغثاء السيل ، عالة على غيرها ، جاهلة ، متخلفة ، في ذيل الأمم ، فهي والعدم سواء .

هذا كله إضافة إلى حقوق الطفل التي يجب أن يتمتع بها طفولة

وتربية وتعليما ، حتى أن الفقهاء اعتبروا أن الحمل الذي يحدث في وقت الإرضاع إنما هو جور على حق الطفل الرضيع ، بل جور على حق كل من الرضيع والجنين ، فسموا لبن الأم آنذاك لبن الغِيلة ، وكأن كلا من الطفلين قد اغتال أو اقتطع جزءًا من حق أخيه ، مما قد يعرض الطفلين الرضيع والجنين لمشاكل في النمو ، قد تصاحبهما أو تصاحب أحدهما طوال حياته أو جزءًا منها ، إضافة إلى المشكلات الأسرية التي قد تنتج عن تلاحق عمليتي الحمل والإرضاع ، فالحمل والإرضاع المتتابعان قد يكون لهما أثر سلبي كبير في تدهور العلاقة داخل الأسرة بين الزوجين ، وانعكاس سلبي على حياة الأطفال وعدم القدرة على الوفاء بحقوقهم .

وقد أجاز النبي (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه العزل ، وهو أحد وسائل تنظيم الأسرة ، ويقاس عليه كل ما يستحدث من الوسائل الصحية الآمنة الميسرة .

كما نؤكد أن القدرة ليست هي القدرة المادية فقط ، إنما هي القدرة المادية والتربوية ، وما يشمل كل جوانب العناية والرعاية ، وليست القدرة الفردية فقط ، إنما هو أمر يتجاوز قدرات الأفراد إلى إمكانات الدول في توفير الخدمات التي لا يمكن أن يوفرها آحاد الأفراد بأنفسهم لأنفسهم ، ومن هنا كان حال وإمكانات الدول أحد أهم العوامل التي يجب أن توضع في الحسبان في كل جوانب العملية السكانية ، فما استحق أن يولد من عاش لنفسه .

على أن تناولنا للقضية يجب ألا يقتصر فقط على الجوانب الاقتصادية ، إنما يجب أن يبرز إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية كل الآثار الصحية والنفسية والأسرية والمجتمعية التي يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها ، ثم المجتمع ، فالدولة ، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب ، إنما قد تشكل ضررًا بالغا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية.

وأخيرا نؤكد أن موضوع تنظيم النسل والعملية الإنجابية قد لا يقف عند حدود الحِلِّ فحسب ، إنما قد يتجاوز هذا الحِلِّ إلى حالة الضرورة التي لا بد ولا مفر منها.

* * *

التسمم الفكري

التسمم درجات وأنواع ، تسمم قد يحدث نتيجة تناول غذاء فاسد ، أو دواء فاسد ، أو استخدام أدوات فاسدة ، وقد يصل التسمم إلى الدم ، فيكون الوباء أشد والعاقبة أسوأ ، غير أن الأسوأ من هذا وذاك هو التسمم الفكري ، ذاك أن أثر التسمم المادي مهما كان خطيرًا ربما لا يتجاوز الشخص المصاب ، أو الأشخاص المصابين ، وحال إمكانية علاجه والسيطرة عليه فإن أثره إلى زوال ، غير أن أثر التسمم الفكري قد لا يقف عند حدود الشخص المصاب ، ولا عند حدود مكانه ولا زمانه ، إنما كثيرًا ما يتجاوزه إلى محيطه على سعة أو ضيق هذا المحيط ، وقد يتجاوز حدود الزمان الذي يعيش فيه إلى عقود وقرون وأجيال وأجيال ، وقد يتجاوز هذا الأثر مجرد الانحراف الفكري إلى عمليات مدمرة ، بعضها قد يكون تكفيرًا ، فتفجيرًا ، فقتلاً وتدميرًا ، أو إفسادًا وتخريبًا ، وبعضها قد يكون عمالة وخيانة وطنية ، أو بيعًا للوطن وأهله بثمن بخس.

وإذا كان المشرع قد وضع عقوبات للتسمم المادي وفق ما يترتب عليه من آثار وجرم من حيث التلاعب بطعام الناس أو غذائهم أو دوائهم أو كسائهم إهمالا كان ذلك أم قصدًا بغية التربح والثراء السريع ، وشرع عقوبات لبيع السلع الفاسدة التي تدمر الصحة وتودي بالحياة ، ويلحق بذلك المتاجرة في السموم البيضاء وغير البيضاء من المخدرات بكافة أشكالها وأنواعها لما تسببه من إتلاف للعقل وخلايا المخ وإنهاك وتدمير

لصحة الإنسان وحياته ، فإننا لفي حاجة إلى قوانين أكثر ردعًا لهؤلاء المجرمين الذين يسممون عقول الناشئة والشباب بأفكار مدمرة ، ودعوات صراح للتكفير والقتل ، وفي حاجة أشد لقوانين أكثر حزمًا في تجريم الفكر الإرهابي وبثه ونشره ، سواء أكان بطريق مباشر ، أم من خلال مواقع التواصل ، أم من على صفحات أو شاشات بعض وسائل الإعلام العميلة المأجورة .

ونؤكد أن علماء الدين ورجال الفكر والثقافة والتربية والتعليم والإعلام أمام مهمتين عظيمتين جليلتين كبيرتين:

الأولى : إدراك خطورة الفكر الإرهابي والعمل على تحصين الناشئة والشباب والمجتمع كله من شرور هذا التسمم الفكري ، بعدم تمكين أي من أصحاب أو كوادر الفكر المتطرف من تشكيل عقول الناشئة أو الشباب ، وتنقية جميع مؤسسات تكوين العقل والفكر ، دينية كانت ، أم تربوية ، أم تثقيفية ، أم تعليمية ، أم إعلامية من أي خلايا نائمة أو مستترة لتلك الجماعات الضالة المضلة المتطرفة ، واجتثاث عناصرهم الإرهابية من هذه المؤسسات .

الأخرى وهي الأهم : العمل على ملء الفراغ وشغل الساحة بكل ما هو نافع ومفيد ومثمر ومحصن لأبنائنا من خطر هذه الجماعات والأفكار، ذلك أن أهل الباطل لا يعملون إلا في غياب أهل الحق ، وإذا فرط أصحاب الحق في حقهم تمسك أصحاب الباطل بباطلهم ، فعلينا جميعًا أن نتكاتف معًـا ، وأن نعمل معًـا ، وأن نسابق الزمن يدًا واحدة في

مواجهة قوى الشر والإرهاب والضلال التي تحيط أو تتربص بنا .

كما أننا في حاجة إلى مساندة مجتمعية لافظة للإرهاب رافضة له ، بحيث لا يمكن أن يقبل مواطن واحد أن تكون منطقته حاضنة للإرهاب أو الإرهابيين ، ذلك أن الإرهاب لا دين له ، ولا عهد له ، ولا وفاء له ، ولا يؤمن إلا بنفسه، وأنه يأكل من يدعمه ، ومن يربيه ، ومن يصنعه ، ومن يموله ، ومن يتستر عليه ، وأنه عندما يصاب بالسعار لا يفرق بين عدو وصديق ، لأن أصحابه يفقدون كل حس إنساني ، ويتجردون من كل صفات وخصائص الإنسانية ، بل إنهم يصيرون أكثر همجية ووحشية من أي حيوان مفترس ، ذلك أن الحيوان المفترس قد يتحرك في محيط جغرافي لا يتجاوزه ، ولا يفترس إلا قدر شهيته أو حاجته للطعام ، أما هؤلاء فهم كما حكى القرآن الكريم عن من تمردوا على الله (عز وجل) وتخلوا عن كل معاني الأديان العظيمة والإنسانية السوية ، فقال الحق سبحانه وتعالى عنهم : {إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}(الفرقان: ٤٤) ، وقال سبحانه :{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} (الأعراف: ١٧٥، ١٧٦)، وهما كما ذكر المتنبي :

ممن تأشب لا دين ولا خلق

فهؤلاء المارقون الضلال لا هم أهل دين ، ولا أهل أخلاق ، ولا أهل قيم ، ولا أهل إنسانية ، إنما هم مسخ انسلخ من كل معاني الأديان

والإنسانية ومن الآدمية ، فصاروا مسخًا آخر لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، لا إلى عالم الإنسان ولا إلى عالم الحيوان ، إنما هم إلى مسخ آخر ذي طبائع خسيسة لم تشهدها البشرية من قبل ، إنها طبائع الإرهاب والإرهابيين .

* * *

وجوه العلماء ليست كالحة

إذا كان الأنبياء جميعًا قد بعثوا رحمة للعالمين ، وكانت رسالة الأديان كلها رسالة المسامحة والتسامح في أسمى معانيهما ، وكان العلماء ورثة الأنبياء ، فلا يمكن أن تكون رسالة العلماء هي العسر أو المشقة على الناس ، ولا يمكن أن تكون وجوههم كالحة أبدًا ، وهذا مضرب المثل سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يأتيه شاب يستأذنه في الزنا !! فصاح به الناس ، لكنه (صلى الله عليه وسلم) قربه منه وقال له في منتهى اللطف والرفق : (أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟) قَالَ : لا ، قَالَ : (وَكَذَلِكَ النَّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟) قَالَ: لا، قَالَ : (وَكَذَلِكَ النَّاسُ لا يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، أَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ ؟.....) ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِ هَذا الشَّابّ، وَقَالَ : (اللَّهُمَّ اغفرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ) (رواه أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ) .

وقام أعرابي فبال فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : مَهْ مَهْ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (لا تُزْرِمُوهُ دَعُوهُ) ، فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يأخذه ويعلمه آداب المسجد في رفق ولين ورحمة وحنو ، فيقوم الرجل فيصلي داعيًا : " اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا " ، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : (لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا) ، أي ضيقت واسعًا.

ويأتيه (صلى الله عليه وسلم) أحد الناس فقال : " يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ ، قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا ؟) قَالَ : لا ، قَالَ: (فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ؟) قَالَ : لا ، فَقَالَ : (فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ؟) قَالَ : لا ، قَالَ : فَمَكَثَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ (وهو الزنبيل الكبير) قَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ ؟ فَقَالَ : أَنَا ، قَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَوَ اللَّهِ مَا بَيْنَ لابَتَيْهَا – يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ – أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ، ثُمَّ قَالَ: أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ " (رواه البخاري) .

ألا نتعلم هذه الرحمة وهذه السماحة من نبي الرحمة ، نبي السماحة الذي بعثه ربه (عز وجل) رحمة للعالمين ، فقال : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧) .

وقد قالوا : المؤمن سهل هين لين يألف ويؤلف ، والكافر فظ غليظ لا يألف ولا يؤلف ، فالغلظة والقسوة صفات أهل النار .

والعالم الرباني، الصوفي الحق، الزاهد الحق، المتعلق بربه ، لا يمكن أن يكون كالح الوجه ، عابس الطلعة ، مكفهر المنظر ، بل هو كما قال الحق سبحانه في وصف أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه إلى يوم القيامة: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} (الفتح:٢٩).

فالعين الباكيـة من خشية الله والقلب الخاشع لله ، وسيلتـا رحمـة لصاحبهما في الدنيا والآخرة ، والقلوب النيرة لا تعرف الحقد ، ولا الغلظة، ولا الجفوة ، ولا العناد ، ولا الانتقام ، ولا التشفي ، إنما تعرف الرفق واللين والرحمة والإنسانية .

أما أولئك الذين طَمَس قلوبهم انتماؤهم إلى الجماعات الإرهابية الضالة المضلة وتنظيماتها المحلية والدولية وأغرتهم بالمال أو الجاه أو الطمع في السلطة تحت خداع التمكين وانساقوا مأجورين لجماعات الخراب ، يوهمون أنفسهم أنهم مجاهدون وأنهم صامدون إفكًا وزورًا ، حتى شاب بعضهم على هذا البهتان وظنه أو توهمه مسلكًا لكثرة ألفته له وبنائه عليه والتفافه حوله وارتباط مصالحه به ، فصاروا يكفرون غيرهم من العلماء أو يفسقونهم أو يرمونهم بالزيغ والضلال بلا بينة ولا دليل ولا برهان ، يزكون أنفسهم بغير حق متناسين قول الله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا }، فالوجوه الكالحة العابسة تُنفِّر من الإسلام ولا تدعو إليه ، أما الوجوه السمحة الباسمة فهي مناط الأمل في الدعوة الحكيمة الراشدة .

*   *   *

مهلاً أيها القساة

رسالة الإسلام قائمة على الرحمة ، فقد أرسل الحق سبحانه وتعالى نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) رحمة للعالمين ، فقال سبحانه : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}(الأنبياء: ١٠٧) ، وجعل رسالته رحمة ، فقال سبحانه: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}(الإسراء: ٨٢)، ووصفه بأنه (صلى الله عليه وسلم) رحمة ، فقال سبحانه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}(التوبة: ١٢٨) ، وقال سبحانه : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ }(آل عمران: ١٥٩).

واستفتح القرآن الكريم ببسملة الرحمة (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ، وافتتحت سورة الفاتحة بآيات الرحمة {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، واستهلت أسماء الله الحسنى بالأسماء الدالة على عظمة الرحمة{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}(الحشر: ٢٢) ، ويقول نبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الرَّحْمَةَ لَا تنزع إلا من شقي).

وإذا كانت الرحمة سمة أساسية في حياة المؤمنين ، فإنها تكون أكثر طلبًا بل ووجوبًا مع الضعفاء والأيتام وذوي الاحتياجات الخاصة ،

ولذا كانت التوجيهات القرآنية والنبوية أكثر تأكيدًا على الرحمة والعناية بهؤلاء الضعفاء ، حيث يقول الحق سبحانه : { فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ }(الضحى : ٩ -١١)، ويقول سبحانه مستنكرًا على المشركين عدم إكرامهم لليتيم ، وعدم حضهم على طعام المسكين : {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}(الفجر : ١٧ ، ١٨)، ويقول سبحانه: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ}(المدثر : ٤٢-٤٤)، ويقول سبحانه : {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}(الماعون: ١-٣).

ويقول سبحانه مبينًا ثواب من يحنو على هؤلاء الضعفاء والمساكين: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا}(الإنسان: ٨-١٢)، ويقول سبحانه: { فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}(البلد: ١١-١٦)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا) .

غير أن هناك من تستطيع أن تصفه أنه لا رحمة له ، أو بأن الرحمة قد نزعت من قلبه ، **الصنف الأول من هؤلاء** : هم الذين لا يكتفون بعدم

الإحسان إلى من يستحقون الإحسان ، إنما يكونون مع الزمن عليهم ، يأكلون أموالهم ، ويبخسونهم حقوقهم ، ولا يرحمون ضعفهم ، حيث يقول الحق سبحانه:{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}(النساء: ١٠).

على أن مال اليتيم إنما يجمع ما تركه له والده أو والداه ، وما كسبته يداه ، أو ما تم التصدق به عليه أو لأجله ، وكل ما جمعته أو تجمعه الجمعيات ودور الأيتام للإنفاق عليهم ، أو ما حبس لأجلهم حتى بعد بلوغهم ، فالقرآن الكريم لم ينزع عن الأيتام وصف اليتم حال تأهلهم للقيام بأمر أنفسهم ، إنما آثر وصفهم باعتبار الحال التي كانوا عليها ترقيقًا للقلوب عليهم ، وتذكيرًا بما يستحقون من تواصل العناية والرعاية ، فقال سبحانه : { وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ }، وقال سبحانه : {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا}(النساء: ٦).

الصنف الآخر : هم هؤلاء الإرهابيون المجرمون الذين يستهدفون الآمنين الأبرياء ، فيرملون النساء ، وييتمون الأبناء ، لا يألون على خلق ولا دين ولا وطن ولا إنسانية ، أعمتهم أنانيتهم ومطامعهم وطمس بصائرهم عن مآلات ما يقدمون إليه ، بحيث صاروا منزوعي الرحمة والإنسانية لا يفكرون في مآلات أفعالهم الإرهابية الخسيسة الدنيئة ، ولا في مصير هؤلاء الأطفال الأبرياء الذين ينضمون إلى قافلة اليتم ، مما يجعلنا أكثر إصرارًا على مواجهة هذا الإرهاب الغاشم ، ويجعلنا نقول

لهؤلاء المجرمين المستهدفين للأبرياء المعتدين على حقوقهم وأمنهم وأمانهم : مهلًا أيها القساة .

*　　*　　*

المنافقون الجدد

النفاق داء مهلك للأفراد والأمم ، وهو أشد خطرًا من الكفر والشرك، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا }(النساء : ١٤٥-١٤٦) .

وللنفاق علامات ، من أهمها : الكذب ، والخيانة ، والغدر ، وخلف الوعد ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (متفق عليه) .

ويبين لنا القرآن الكريم جانبًا من خصال وأحوال المنافقين في مواضع عديدة ، منها :

١- أنهم يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} (التوبة

: ٨٦-٨٧) ، ويقول سبحانه : { وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا }(الأحزاب : ١٣) ، ويقول سبحانه : { وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا } (الأحزاب : ٢٠).

٢- أنهم يقيسون كل أمورهم بقدر ما يتحقق لهم من منافع ، حيث يقول الحق سبحانه: { وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ }(التوبة : ٥٨) ، ويقول سبحانه : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}(الحج : ١١).

٣- الفساد والإفساد وكثرة الحلف الكاذب ، حيث يقول الحق سبحانه: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ }(البقرة : ٢٠٤) .

٤- تأليب الرأي العام وبث الوهن في نفوس المؤمنين الصادقين ، حيث يقول الحق سبحانه: { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ }(التوبة : ٤٦-٤٧) ، ويقول سبحانه : { وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ }(التوبة : ٨١) ، ويقول سبحانه : { قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا }(الأحزاب : ١٨).

٥- التحالف مع الأعداء والتواصل معهم على حساب الدين والوطن ، حيث يقول الحق سبحانه:{فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} (المائدة : ٥٢)، ويقول سبحانه : { وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا} (النساء : ٧٢-٧٣) .

ومع أن علامات النفاق من الكذب ، والخيانة والغدر ، ونقض العهود والمواثيق ، وتأليب الرأي العام ، وخيانة الدين ، إنما هي صفات المنافقين قديمًا وحديثًا ، فإن المنافقين الجدد قد ضموا إلى ذلك ضروبًا جديدة من الخداع من أبرزها لبس مسوح الدين والمتاجرة به واستغلاله لتحقيق مصالح الجماعات التي تريد أن تتخذ من الدين مطية إلى السلطة ، متدثرة في ألوان شتى من التدين الشكلي والتدين السياسي ، إضافة إلى ما يتسم به المنافقون الجدد من خيانة الوطن وتحقيره وبيعه بثمن بخس .

*   *   *

الإسلام وحقوق الإنسان

لقد كرم الإسلام الإنسان على إطلاق إنسانيته بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو عرقه ، فقال سبحانه في محكم التنزيل : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}(الإسراء : ٧٠)، ولم يقل كرمنا المسلمين وحدهم ، أو المؤمنين وحدهم ، ولا الموحدين وحدهم ، ولا المتدينين وحدهم .

كما حفظ للإنسان ماله وعرضه ودمه ، حيث يقول رسولنا (صلى الله عليه وسلم) في خطبته الشهيرة "حجة الوداع" مخاطبًا الناس جميعًا : (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ) ، ويقول الحق سبحانه : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }(المائدة : ٣٢) ، ولما مرت جنازة يهودي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هبَّ واقفًا ، فقيل له : إنها جنازة يهودي ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (أليست نفسًا) ؟! .

وعندما قال (صلى الله عليه وسلم) : (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) (رواه مسلم) لم يخص (صلى الله عليه وسلم) الجار بكونه مسلمًا أو مؤمنًا أو متدينًا ، وإنما أطلقه عامًا ليشمل كل جار بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : (الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى الله عَنْهُ) ، وعندما قال (صلى الله عليه وسلم) : (وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) ذكر لفظ الطريق على الإطلاق ولم يقل طريق المسلمين أو المؤمنين ، وهكذا في سائر ما يتصل بالتعامل مع الناس جميعًا .

وإذا تحدثنا عن أهم الحقوق التي رسختها خطبة الوداع نجد أنها شملت حق الحياة ، وحق الأمن على النفس والمال والعرض ، كما تحدثت بوضوح شديد عن حق المرأة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : (إِنّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا) .

وقد طالعت التقرير السنوي للمجلس القومي لحقوق الإنسان "٢٠١٦-٢٠١٧" ولفت نظري فيه اتساقه مع هذه المبادئ من حق الحياة وحق الأمن المجتمعي والاقتصادي ، وكان مما ذكره التقرير ما يلي :

١- يُثمن المجلس التضحيات الكبيرة التي يقدمها رجال القوات المسلحة والشرطة لحماية الدولة والمجتمع من الجرائم الإرهابية التي تشكل بطبيعتها أحد أشد انتهاكات حقوق الإنسان جسامة ، كما يثمن مبادرة السيد رئيس الجمهورية لتأسيس مجلس قومي لمكافحة الإرهاب والتطرف تتويجاً للمبادرات المتنوعة في هذا الصدد .

٢- ينظر المجلس بتقدير إيجابي لجهود الدولة في حفظ الأمن العام ومكافحة الإرهاب ، وتعزيز سيادة القانون واستعادة هيبة الدولة .

٣- يثمن المجلس الجهود الكبرى التي تبذلها الدولة لتلبية الحقوق الاقتصادية والاجتماعية وتحقيق التنمية الوطنية الشاملة وبناء مسار تنمية مستدامة .

وهو ما يجعلنا نؤكد وباطمئنان أن الحقوق الطبيعية للإنسان قد رسخها ديننا الحنيف وأكد عليها رسولنا (صلى الله عليه وسلم) منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنًا من الزمان .

ونؤكد أن مكافحة الإرهاب حق من حقوق الإنسان ، كما أن الحق في الحياة الكريمة صحة وتعليمًا وإسكانًا أحد أهم حقوق الإنسان ، كما نؤكد – أيضًا – أن تحقيق العدالة الإدارية ، سواء من حيث عدالة رئيس أي مؤسسة بين مرءوسيه ، أم من حيث العدالة في تقديم الخدمات أو الحصول عليه ، أم من حيث وصول الدعم إلى مستحقيه الحقيقيين ، وأن العمل الجاد على توفير الحياة الكريمة للإنسان هو من أولى أولويات حقوق الإنسان الطبيعية ، وأنه لا تنمية ولا استقرار إلا بمواجهة حاسمة للإرهاب والقضاء عليه ، وهو ما يجعل من مواجهة الإرهاب أولوية ومن تضافر الجهود للقضاء عليه في مقدمة الواجبات الوطنية ، والتقاعس عن مواجهته أو التستر عليه خيانة وطنية كبرى .

*   *   *

العدالة الإدارية

العدل هو العدل ، والظلم هو الظلم ، فالعدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، ولذا جعل نبينا (صلى الله عليه وسلم) الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله (عز وجل) في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابّا في الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقال: إِنِّي أَخَافُ الله، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عَيْنَاهُ) ، ونهى (صلى الله عليه وسلم) عن الظلم بجميع أنواعه حتى في تحصيل الزكاة ، فقال (صلى الله عليه وسلم) لسيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) حين بعثه إلى اليمن : (فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) .

إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه .

على أن هذا العدل الذي ننشده ليس مسئولية رئيس الدولة وحده ، ولا السلطة الأعلى في أي مؤسسة وحدها ، فإن المسئولية في تحقيق العدالة تقع على كل من ولاه الله أمر مجموعة من الناس في أي مجال من المجالات (كلُّكم راعٍ ، وكلُّكُم مسئولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ) ، فمدير المدرسة،

إلى مدير الإدارة ، إلى مدير المديرية ، إلى وكيل الوزارة ، إلى رئيس القطاع ، كل في مجاله وميدانه مسئول عن تحقيق العدالة بين مرءوسيه وبين المستفيدين من الخدمة التي تقدمها المؤسسة ، وكذلك الحال في القسم ، والكلية ، والجامعة ، وكذلك الأمر بالوحدة الصحية ، فالمستشفى، فالإدارة الطبية ، فالمديرية ، فالقطاع الطبي ، وكذلك الحال في الزراعة، والأوقاف ، والإسكان ، والكهرباء، وسائر الوحدات المحلية ، والخدمية ، والإدارية .

إن تحقيق العدل الإداري بين الموظفين ، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات ، وفي التعيينات ، وفي الترقيات ، وفي السفر ، وفي الإيفاد والبعثات ، ووضع ضوابط واضحة وحاسمة وصارمة وشفافة ودقيقة أمر في غاية الأهمية ، ويسهم في تحقق الرضا المجتمعي ، وقوة الإيمان بالدولة ، ويعمق الولاء والانتماء لها ، في حين أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان ، أما الظلم فهو محض ظلمات ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ}(إبراهيم: ٤٢)، ويقول سيحانه:{وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولاً} (الفرقان: ٢٧-٢٩).

ونستطيع أن نضرب أنموذجًا بما حققناه في مسابقة الأوقاف المصرية

في جميع مسابقات الإيفاد والابتعاث ، ومسابقات الأئمة والعمال من مقاييس واضحة وشفافة ومعلنة ، معتمدة على ضوابط محددة وواضحة ، بحيث نستطيع أن نؤكد ومن خلال التجربة أن إماما واحدًا لم يُقْبل بأي درجة من درجات المجاملة ، أو المحسوبية ، أو دون استحقاق ، ومن كانت لديه حالة واحدة فليشر لنا إليها ، ويقول : هذا الإمام تم قبوله دون استحقاق ، على أننا لا نذكر ذلك مباهاة ، فهذا واجبنا ، وهذا هو الأصل ، وهو ما ينبغي أن نفعله ، وهو ما لو حدنا عنه لكنا مقصرين في واجبنا ، وفي الأمانة التي تحملناها ، وفي القسم الذي أقسمناه ، غير أني أذكر ذلك الأنموذج لأمرين :

الأول : هو أننا قادرون على أن نحقق العدالة الإدارية والاجتماعية والمجتمعية متى توفرت الإرادة لدينا ، وأن هذا الأمر ليس مستحيلاً .

الأمر الآخر : هو مدى حالة الرضا العام الذي يحدث عند تحقيق العدالة ، حيث سمع بعض زملائنا من أساتذة الجامعة المراقبين على الامتحانات من يقول : حتى لو لم ننجح فنحن مطمئنون أنه لن ينجح إلا من يستحق ومن هو أفضل منا ، وأختم بهذه الرسالة التي وصلتني من أحد المتقدمين للمسابقة ، حيث أرسلها على بريدي الخاص يقول فيها : " لقد صار عند الجميع قناعة أنه لا نجاح إلا لمن يستحق وبجدارة ، وباختصار كان المتقدمون للمسابقات قديما يبحثون عن واسطة أو رشوة، أما اليوم فيبحثون عن المصحف والكتاب والمذكرة ".

*   *   *

الطبيب الإنسان

لكم من طبيب إنسان بكل ما تعنيه كلمة الإنسانية من معان عرفته ، ووددت لو ذكرت كل واحد منهم باسمه إكرامًا لإنسانيته ، غير أن المقام سيطول بذكر كل من عرفت من الأطباء النبلاء ، فالطب مهنة إنسانية قبل كل شيء ، وقد سموا الطبيب حكيما ، والأطباء حكماء ، لما هم عليه من الحكمة ، وما يجب أن يتسموا به منها ، وعلى الرغم من أني مدين لأكثر من تعاملت معهم من الأطباء بكرم الطباع وحسن المعاملة ، ولم أجد من أحدهم إلا ما يحمل على المودة والتقدير ، فإنني من واقع انشغالي بترسيخ كل ما هو إنساني أُذَكّر بما يأتي :

١- أن المريض إنسان مكروب ، ولا كرب أشد من المرض ، وأصعب من الألم ، فالمريض إنسان في موضع ضعف شديد مهما كانت رتبته أو مكانته العلمية أو الأدبية أو السياسية أو إمكاناته المالية ، ونبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : (مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ، وليست الكربة في المال أو ضيق ذات اليد فحسب ، بل إن كربة الألم أشد وأوجع، بدليل أن الإنسان مهما كانت درجة فقره أو فاقته فإنه يكون على أتم استعداد لبيع كل ما يملك بما فيه بيته الذي يأويه ، بل على استعداد أن يستدين بأي طريق كان ليعالج نفسه أو زوجه أو ولده أو أحد أبويه .

٢- أن المريض أكثر الناس حاجة إلى بث الأمل والطمأنينة في نفسه ولو مع دنو أجله ، كما أنه في حاجة إلى الكلمة الرقيقة ، والبسمة الحانية ، وإذا كانت البسمة في وجه أخيك الإنسان صدقة ، فإنها في وجه المريض ألزم وأوجب وأعظم أجرًا وثوابًا ، كما أن المريض معذور بمرضه وإن ألحَّ في السؤال لجهله ، ألم يقل الحق سبحانه :{وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ}(النور: ٦١)، بإطلاق لفظ المريض دون تفرقة بين مريض ذكي وآخر غبي ، أو مريض عالم وآخر جاهل ، أو مريض مثقف وآخر غير مثقف ؟!.

٣- أن المريض قد يجتمع عليه المرض والعوز فيكون أكثر حاجة إلى الرحمة والشفقة ، والصبر عليه، وجبر خاطره ، وعدم الاشمئزاز منه ، فهذا المريض كفيله وشفيعه هو ربه الذي اختبره وامتحنه بما هو فيه من فقر ومرض ، ألم يقل الحق سبحانه في الحديث القدسي : (يَا ابْنَ آدَمَ ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي ، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟!".

٤- ضرورة أن يتذكر الطبيب ما أنعم الله عليه به من نعم الذكاء والتعلم والتفوق والتوفيق ، وأن يعلم أن لكل هذه النعم شكرًا يجب أن يؤدى ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ}(إبراهيم:٧)، وأفضل شكر للنعمة هو ما يكون من جنسها والإحسان فيها ، فشكر المهارة في الطب يكون

بحسن معاملة المرضى وإكرام الفقراء والمحتاجين منهم ، وأن نتذكر جميعًا أن من لا يرحم لا يُرحم ، وأن الرحمة لا تنزع إلا من شقي.

٥- أن ما كان مكتوبًا لأي إنسان منا من المال أو غيره فسوف يأتيه دون زيادة أو نقصان ، وأن ما أصابنا لم يكن ليخطأنا ، وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ، ولن تموت نفس حتى تستوفى أجلها ورزقها ، وأن كل شيء عند الله سبحانه وتعالى بقدر ومقدار .

٦- أن كفاية الأمة في جميع مجالات الحياة إنما هو فرض من فروض الكفايات ، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين ، وإن لم يقم به أحد أثم كل من علم وكان قادرًا على أن يقوم بفرض الكفاية ولم يفعل، فكما أن تعليم علوم الدين وأصوله فرض كفاية على العلماء ، ومحو أمية غير المتعلمين فرض كفاية على المعلمين ، فإن علاج المرضي فرض كفاية على الأطباء في كل مجتمع من المجتمعات قرية ، أو مدينة ، أو دولة ، كل على قدر استطاعته ، على أن يكون الأمر على أعلى درجات الهمة والاستطاعة لا على أقلها ولا أدناها ، فلا عليك إن خصصت جزءًا من وقتك لعلاج غير القادرين في مصحتك أو مشفاك.

* * *

الدنيا والآخرة

الدنيا فانية لا محالة ، غير أننا نعيش فيها ، ونحن مأمورون بإعمارها وإعمار الكون ، والسير في مناكب الأرض بحثًا عن الرزق ، وبناء للحضارة، وطلبًا للعظة والاعتبار بحال من مضى في القرون الأولى .

والآخرة باقية ، ونحن مأمورون بالسعي لها ، والإقبال عليها ، والعمل لأجلها ، عملا لا يخالطه دَخَلٌ ولا نفاق ، وذلك حيث يقول سبحانه : {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}(الإسراء : ١٩).

على أن سعي الدنيا المذموم هو ذلك السعي الذي يكون على حساب الآخرة ، وفيمن يضحي بآخرته لأجل دنياه ، ولا يعنيه سوى الدنيا ولو باع نفسه أو دينه أو وطنه في سبيلها ، وذلك النوع هو الذي ينطبق عليه قوله تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا}(الإسراء : ١٨) ، وقوله تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}(هود :١٥-١٦) ، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا

قُدِّرَ لَهُ) (جامع الترمذي) .

أما سعي العمل والإنتاج وتحقيق الاستغناء عن ذل السؤال أو الحاجة إلى الناس ، فهو ذلكم السعي الذي يدعو إليه الإسلام ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه سلم) : (مَنْ أَمْسَى كالًّا مِنْ عَمَلِ يَدَيْهِ أَمْسَى مَغْفُورًا لَهُ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ) (صحيح البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إذا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا) (رواه أحمد) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (لَأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ) (صحيح البخاري) .

إن الذي نفتقده ، والذي نسعى إليه ، هو ذلكم التوازن ، وتلكم الوسطية القائمة على الاعتدال ، في قوله تعالى : { وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ } ، وقوله تعالى : { وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا }(الإسراء : ٢٩) ، وقوله تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا }(الفرقان : ٦٧) ، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ) ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِى فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ

يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لاَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلاَ يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلاَ يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلاَ عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ) (سنن الترمذي)، وقد قالوا :

ما أجمل الدينَ وَالدُنيا إِذا اِجتَمَعا

وَأَقبَـحَ الكُفـرَ وَالإِفلاسَ بِالرَجُـلِ

فلا حرج في طلب الحسنى في الدنيا والآخرة ، بل هل مطلوب مشروع وممدوح ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : { وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (البقرة : ٢٠١-٢٠٢) ، نسأل الله (عز وجل) أن نكون منهم.

*   *   *

سلوك وسلوك

لا شكَّ أن سلوك الشخص يعكس مدى ثقافته ، ومدى أخلاقه ، ومدى تربيته ، ومدى حضارته ، وكذلك سلوك الأمم والشعوب يعكس مدى قيمها وتحضرها ، بل إن سلوك الشخص يعكس مدى إيمانه بوطنه ، وإيمانه بربه ، لأنه لو راقب الله (عز وجل) حق المراقبة لانضبط سلوكه وتصرفه ، وقد قال أحد المفكرين الحكماء : من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نجعل لكل إنسان جنديًّا أو شرطيًّا أو حارسًا يحرسه ، وحتى لو جعلنا لكل شخص حارسًا أو جنديًّا أو شرطيًّا يحرسه فإن الحارس أيضًا قد يحتاج إلى من يحرسه ، والمُراقب قد يحتاج إلى من يُراقبه ، ولكن من السهل أن نُربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه ، راقبناه أم لم نراقبه ، لأنه يُراقَب ممن لا تأخذه سنة ولا نوم ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: { اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}(البقرة:٢٥٥)، وحيث يقول (عز وجل): {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(الأنعام:٥٩) ، ويقول سبحانه على لسان لقمان عليه

السلام في وصيته لابنه :{ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }(لقمان:١٦) ، ويقول سبحانه : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(المجادلة:٧)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلاثٌ كَفَّارَاتٌ ، وَثَلاثٌ دَرَجَاتٌ ، وَثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ ، وَثَلاثٌ مُهْلِكَاتٌ ، فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ : فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجُمُعَاتِ ، وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ : فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، وَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ : فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ ، وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ) .

ومن أهم السلوكيات التي ينبغي أن نُركز عليها هو التمييز بين السلوك الإيجابي والسلوك السلبي تجاه الحق العام ، والشأن العام ، والمال العام ، ففي جانب السلوك الإيجابي الذي يؤكده الإسلام ويُرشدنا ويحثنا عليه خير الأنام سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) إماطة الأذى عن الطريق ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (إماطة الأذى عن الطريق صدقة) ، وعندما سأل رجل

النبي (صلى الله عليه وسلم) عن عمل يُدخله الجنة قائلاً يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ ؟ قَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَمِطِ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ) ، على أن إماطة الأذى عن الطريق لا تتوقف عند مجرد رفع حجر هنا أو هناك عنه ، وإن كان ذلك أمرًا مشروعًا ومطلوبًا وجيدًا ، ولا يُستهان أو يُستخف به ، إنما حق الطريق أبعد من ذلك ، وأول حقوقه عدم الاعتداء عليه ، أو الإجحاف به ، أو عدم الوفاء بحقه ، فقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه يومًا : (إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ ، فَقَالُوا : مَا لَنَا بُدٌّ إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلاَّ الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الأَذَى ، وَرَدُّ السَّلاَمِ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْىٌ عَنِ الْمُنْكَرِ) (رواه البخاري) ، على عكس السلوك السلبي الذي قد يتمثل في الاعتداء على المساحة المخصصة للطريق سواء بالبناء أم بالإشغال أم بالإزعاج أم بالخروج على الآداب العامة ، ويلحق بالطريق في ضرورة إعطائه حقه والمحافظة عليه كل ما في حكمه من مسارات السكة الحديد ، ومترو الأنفاق ، وخطوط المياه ، والغاز ، والكهرباء ، وسائر المرافق العامة .

وكذلك السلوك تجاه المال العام الذي هو مال الله ، ومال الأمة ، ومال الوطن ، ومال المواطنين ، حيث يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ

عُدْوَانا وَظُلْما فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرًا }(النساء: ٢٩–٣٠)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) .

على أن حُرمة المال العام أشد من المال الخاص ، فإذا كان للمال الخاص صاحب يدافع عنه ويطالب به في الدنيا والآخرة ، فإن المال العام الذي هو حق للمجتمع كله قد يترتب على ضياعه جوع يتيم ، أو وفاة مريض ، أو فوت مصلحة عامة للوطن ، يؤثر ضياعها على أفراد المجتمع كله ، مما يجعلهم جميعًا خصومًا لمن اعتدى عليه سواء في الدنيا أم { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}.

*   *   *

عاقبة الشذوذ والانحراف

لا شك أن لله تعالى سننًا جارية في كونه وخلقه { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } ، ومن هذه السنن أن الأمم التي بغت وطغت وتجبرت وخرجت على سنن الله الكونية وفطرته السوية كان عاقبة أمرها خسرا ، سواء أكان الخروج على سنن الله تجبرًا وتكبرًا واستعلاء على نحو ما كان من فرعون وهامان وقارون وعاد وثمود وأصحاب الرس ، أم كان فسادًا أو إفسادًا ، أو أكلاً لأموال الناس بالباطل، أم تطفيفًا للكيل والميزان على نحو ما كان من أصحاب الأيكة قوم شعيب (عليه السلام) ، الذين قال لهم نبيهم : { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ }(الشعراء: ١٨١-١٨٣)، فلم ينتهوا ولم يستجيبوا كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الشعراء نفسها ، فقال سبحانه :{فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}(الشعراء: ١٨٩)، وكقوم صالح ، الذين قال لهم نبيهم : {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}(الشعراء: ١٥٠-١٥٢)، فطغوا وتجبروا ولم يستجيبوا ، وعقروا الناقة ، على نحو ما ذكره الحق سبحانه وتعالى : {فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ

الْعَزِيزُ}(هود: ٦٥،٦٦)، أو كشواذ قوم لوط الذين خرقوا سنن الله الكونية { فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}(الروم: ٣٠)، ويقول سبحانه : {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا}(الطلاق: ٨، ٩).

لقد تحدث القرآن الكريم عن شذوذ قوم لوط في مواطن عديدة لتسليط الضوء على سلوكهم غير الإنساني الذي أطلق عليه القرآن الكريم " الفاحشة " بالتعريف بالألف واللام ، ولم يقل " فاحشة " ، وكأن فعلتهم قد صارت علمًا على الفاحشة ، بحيث تتلاشى إلى جانبها أي فاحشة أخرى ، وذلك حيث يقص علينا القرآن الكريم ما كان من سيدنا لوط (عليه السلام) مع قومه ، فيقول سبحانه : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } .

وفي سورة العنكبوت ترتفع نغمة التحدي لدى هؤلاء الشواذ لنبي الله لوط (عليه السلام) إلى درجة طلبهم منه أن يأتيهم بعذاب الله إن كان من الصادقين ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : { وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ

جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ }(العنكبوت : ٢٨-٣٠).

وفي اللحظات الحاسمة التي يبلغ شواذ قوم لوط فيها ذروة التحدي بمحاولة التعدي على ضيوف سيدنا لوط عليه السلام الذي كانوا في واقع أمرهم رسل الله الذين أرسلهم لإخراج سيدنا لوط وأهله إلا امرأته من هذه القرية الظالم الفاسق الشاذ أهلها ، إيذانًا بدنو ساعة إهلاك الظالمين منهم جزاء فجرهم وشذوذهم ، يصور لنا القرآن الكريم هذا الحوار ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ }(هود : ٦٩-٧٠).

وفي قلب المحن والألم تكون الحياة والأمل { وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}، حيث يقول الحق سبحانه عن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) في ثنايا الحديث عن إرسال الرسل لإهلاك شواذ قوم لوط : { وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } (هود: ٧١-٧٣)، ثم يقول الحق سبحانه:{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ

مَرْدُودٍ}(هود:٧٤-٧٦).

لقد انتهى الحوار ودنت ساعة الحساب ، وهنا ينتقل النص القرآني إلى الحوار بين سيدنا لوط وشواذ قومه من جهة ، وبين سيدنا لوط ورسل الله (عز وجل) من جهة أخرى ، بما يؤكد انطماس فطرة الشواذ وعمى بصيرتهم، وذلك حيث يقول الحق سبحانه : { وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ}(هود : ٧٧-٨٠)، وهنا تحدث الرسل: { قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}(هود : ٨١-٨٣).

إنها لعاقبة تحمل العديد من العظات والعبر لمن يعتبر ، فقد أرسل الله (عز وجل) سيدنا جبريل (عليه السلام) ليقلب قرى قوم لوط رأسًا على عقب ، { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا } وليس هذا فحسب ، فقد أرسل رب العزة عليهم حجارة قوية صلبة متتابعة من سجيل ، وعلى كل حجر منها اسم من أرسل إليه لإهلاكه ، وجدير بنا أن نتأمل هذا التعقيب في قوله

تعالى : { وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ }، ليعتبر بذلك المعتبرون في كل زمان ومكان ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا ، إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا) ، ويقول الحق سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}(النور:١٩)، ومن ثم يجب الاعتبار بحال من سبق من الأمم.

والذي لا شك فيه أن مخاطر الانحراف والشذوذ والانفلات القيمي والأخلاقي والمجاهرة بالفسق والفجور لا تقل خطرًا عن مخاطر العنف والإرهاب والتطرف ، فكلا الأمرين : الإفراط والتفريط مدمر للشعوب والمجتمعات ، ومهلك للأمم ، وأن انحلال المنحلين من الشواذ المجاهرين بالفسق والعصيان ودعم أفكارهم قنابل موقوتة في المجتمع كقنابل المتطرفين سواء بسواء ، مما يتطلب منا جميعًا أن نواجه الشذوذ والانفلات والتسيب بنفس القوة والحسم اللتين نواجه بهما الإرهاب والتطرف ، مرضاة لربنا (عز وجل) من جهة ، وحفاظًا على أمن المجتمع وسلامه واستقراره من جهة أخرى .

*   *   *

الفهلــــوة

أعجبني ما ذكره السياسي المخضرم والمتحدث البارع الأستاذ الدكتور/ مصطفى الفقي عندما ذكر في إحدى الندوات التي اشتركنا فيها معًا أنه حاول أن يبحث عن مفردة مقابلة لمفردة الفهلوة في أي لغة أخرى فأعياه ذلك ، إلا أن تفسر هذه الكلمة بجملة ، ذلك أنها عملية معقدة قائمة على الخداع أو المخاتلة أو التزييف ، فهي أشبه ما يكون بأعمال السحرة والحواة ، الذين يعتمدون على الحيل في خطف الأنظار والقيام بعمليات إبهار مصطنعة ، تعتمد على خفة الظل أو اليد أو حركة الجسم ، لتُرى الناس بعض الحقائق على غير ما هي عليه ، على حد قوله تعالى:{سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} (الأعراف:١١٦)، وقوله تعالى : { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} (طه: ٦٦) ، فهي لا تسعى على الحقيقة .

ذلك أن الساحر والفهلوي والدجال غير قادرين على قلب الحقائق ، إنما قدرتهم في التلاعب بعقول أو أبصار المستهدفين ، ولو كان السحرة قادرين على قلب الحقائق ، لقلبوا التراب ذهبًا واستغنوا عن طلب الأجر من فرعون حين قالوا له : { فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ} (الشعراء: ٤١)، ذلك أن الإنسان قد يذهب إلى أحد الدجالين أو العرافين أو النصابين فيوهمك أنه قادر على إغنائك أو إثرائك أو قلب التراب لك ذهبًا أو الورق نقودًا على أن تعطيه كذا

وكذا، ولو كان قادرًا على ذلك لفعل ذلك لنفسه واستغنى عن طلب المال منك وتعريض نفسه للمخاطرة بهذا النصب الذي يجرمه القانون.

وقد رأيت بأم عيني الاثنتين عاقبة كثير من الفهلوية ، فما شبعوا يوما ما ، وما اغتنوا يوما ما ، ولا استراحوا في عاقبة حياتهم ، ولا كانوا محمودين في سيرتهم ، ذلك أن الذهب ذهب وما سواه سواه ، وفرق بين الممتلئ قوة وعضلا والمنتفخ ترهلا ومرضا ، إذ لا تخطئهما عين البصير ، أما عين الذي لا يكاد يميز بين هذا وذلك فلا يعتد بها ، على حد قول المتنبي :

أُعِيـذُها نَظَـــراتٍ مِنْـــكَ ثاقَبـــةً

أن تحسَـبَ الشّحمَ فيمن شحمهُ وَرَمُ

وَمَـا انْتِفاعُ أخي الدّنْيَـا بِنَاظِـــرِهِ

إذا اسْتَوَتْ عِنْـدَهُ الأنْـوارُ وَالظُّلَـمُ

فما كل بيضاء شحمة ، وليس كل ما يلمع ذهبا ، وإن انخدع به المنخدعون.

على أن الفهلوي لا يمكن أن يكسب أرضًا أو مالا أو نفعًا إلا على أيدي الحمقى والمغفلين والطماعين الذين يسعون إلى الكسب السريع ، أو الكسب غير المشروع ، أو الكسب بلا تعب ، وكل ذلك إما إلى فناء أو إلى متاعب أو إلى مشكلات ، على أن الفهلوي إنما يخادع نفسه وإن خيل إليه أنه قادر على خداع الآخرين.

والأهم هو ألا نعطي الفهلوي فرصة ليخدعنا ، وألا ننساق خلف حيله، فمن اقترب من النار احترق بها أو أصابه من دخانها على أقل تقدير ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السوءِ كحامِلِ المسك، ونافخِ الكِيْرِ فحاملُ المسك: إما أن يُحْذِيَكَ ، وإما أن تبتاع منه، وإِمَّا أن تجِدَ منه ريحا طيِّبة ، ونافخُ الكير: إما أن يَحرقَ ثِيَابَكَ ، وإما أن تجد منه ريحا خبيثَة) .

والذي لا شك فيه أن الكسب المترتب على الفهلوة لا يخرج عن كونه في الغالب الأعم كسبًا حرامًا أو كسبًا فيه دَخَلٌ ، وفيه كلام ، وفيه شبهات يجب أن تُتَّقىَ ، وقد قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ) .

وقديمًا قالوا : يمكن أن تخدع بعض الناس بعض الوقت ، ولكنك لا يمكنك أن تخدع كل الناس كل الوقت ، فكل إناء بما فيه ينضح ، وكل كيل بما فيه يفيض .

*   *   *

الخسران المبين

لاشك أن الخسران المبين إنما هو لمن خسر الدنيا والآخرة ، حيث يقول سبحانه : { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ }(الحج : ١١) .

فالخسران المبين هو المعادل اللغوي والموضوع الأنسب والأدق لمن خسر دنياه وآخرته ، والأدهى والأمر أن يخسر الإنسان دنياه وآخرته جهلاً وحمقًا وسفهًا وزيفًا وضلالاً ، وهو يحسب أنه ممن يحسنون صنعا ، على شاكلة هؤلاء الإرهابيين الذين يقومون بالعمليات الإرهابية الإجرامية التفجيرية يسفكون بها الدماء ويروعون بها الآمنين تحت وهم أنهم يحسنون صنعا ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة الكهف : { قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا }(الكهف : ١٠٢-١٠٣) ، وحيث يقول سبحانه في سورة الأعراف : { فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ} (الأعراف : ٣٠) .

على أن هؤلاء الشياطين من الإنس والجن هم أول وأسرع من يتبرأون من أتباعهم يوم القيامة ، حيث يقول الحق سبحانه في سورة إبراهيم (عليه السلام) : { وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}(إبراهيم:٢٢) ، ويقول سبحانه : { وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } (الأنعام:١٢٨-١٢٩) ، ويقول سبحانه: { فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ } (غافر : ٤٧-٤٨) .

وعلى الجملة فإن الذين اتبعوا سيتبرؤون من الذين اتبعوهم ، حيث يقول الحق سبحانه : { إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ } (البقرة : ١٦٦-١٦٧) ، وساعتها سيندم هؤلاء المتبعون مما أصابهم جراء اتباعهم الأعمى وانسياقهم خلف شياطين الإنس والجن ووقوعهم في شراكهم ، حيث يصور القرآن الكريم حال النادمين حيث لا ينفع الندم ، فيقول سبحانه : { وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ

فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} (الفرقان : ٢٧-٢٩) .

وأي خسران أشد من هؤلاء المنتحرين الذين يفجرون أنفسهم وغيرهم أشلاء ضلالا وإضلالا ، بما لا يقر به دين ولا عقل ولا إنسانية ، لأن جميع الأديان تجمع على حرمة الدماء والأموال والأعراض ، حيث يقول الحق سبحانه : { مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا }(المائدة :٣٢) ، ويقول سبحانه : {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}(النساء: ٩٣) ، ويقول سبحانه : { وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }(النساء : ٩٤) ، وحيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا) (رواه البخاري) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ) (رواه مسلم) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَلَا إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ

حَرَامٌ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ شَهْرِكُمْ هَذَا ، وَكَحُرْمَةِ بَلَدِكُمْ هَذَا) (مسند أحمد).

*　　*　　*

مفهوم الاحترام

الاحترام ليس شعارًا ، إنما هو منتهى العفة في اللسان ، والترفع في السلوك ، والوفاء في العهد والوعد ، والإسراع في ردِّ الجميل ، ومقابلة الإحسان بمثله بل بأفضل منه ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا}(النساء :٨٥) ، وحيث يقول (عز وجل) : { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }(فصلت : ٣٤-٣٥) .

إنه الترفع عن الصغائر والدنايا ، واجتناب كل ما يخل بالمروءة والكرامة ، سواء في مطعم ، أم في ملبس ، أم في مجلس ، أم في ولوج مواطن الشبهات .

إنه الصدق في القول ، والرحمة في غير ضعف ، والتواضع في غير ذل ، والقوة في الحق ، بلا تردد وبلا تجاوز ولا عنف ، والصفح والحلم عند المقدرة ، والتجاوز عن المعسر ، وإنظار الموسر .

إنه التحلي بالإيثار لا الاتصاف بالأثرة أو الأنانية ، إنه البعد عن كل ما يشين من الحمق والطيش والنزق ، والاستغلال ، والاحتكار ، والغش ، والتدليس ، والظلم ، والإفك ، والافتراء ، والبهتان .

إنه الاعتراف بحق الآخرين ، وحب الخير لهم ، وحسن الإنصات إليهم، وعدم الاستهانة بهم ، أو التقليل من شأنهم .

إنه وضع الشيء في موضعه من احترام الكبير ، ورحمة الصغير ، وإنزال العلماء والعظماء منازلهم ، حيث يقول سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا) (رواه الترمذي) ، ولما رأى (صلى الله عليه وسلم) سيدنا سعد بن معاذ (رضي الله عنه) : قال للأنصار : (قوموا إلى سيدكم) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه) ، ولما تولى سيدنا أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) ولاية الكوفة جعل يفتح أبوابه للناس جميعًا ، فكانت العامة والدهماء تسارع إلى مجلسه ، حتى إذا جاء العلماء والقراء وشيوخ القبائل ورءوس الناس لم يجدوا لهم موضعًا فينصرفوا ، فكتبوا إلى سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بذلك ، فكتب إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) : ما هكذا أبا موسى يكون الفقه ، إذا فتحت بابك فائذن للعلماء والقراء ورءوس الناس فإذا أخذوا أماكنهم فاسمح لعامة الناس .

وإذا كان الاحترام مطلوبا على كل حال ومن كل فئة ، فإنه في مجال العلم وبين أهل العلم ألزم وأوجب .

غير أنا مما ابتلينا به في زماننا هذا تجرؤ الجهلاء على العلماء ، والدهماء على العظماء ، والرويبضة على أهل العلم والفكر ، حتى صار بعض الناس يتخذون من مرشيدهم غير المؤهلين رءوسًا جهالا فيستفتون فيفتون بغير علم فيضلون ويضلون .

وقد عد العقلاء من طامة الدهر ومصائبه وابتلاءاته انقلاب الأحوال ووضع الأمور في غير نصابها ، حتى قال أحدهم :

مَتَـى تَصِــلُ العِطُـاشُ إِلــى ارْتِـوَاءٍ

إِذَا اسْتَقَـتِ البِحَـارُ مِـنْ الرَّكَايَـا؟!

وإِنَّ تَرَفُّـــعَ الوُضُــعَـــاءِ يَوْمًــا

عَلَى الرُّفَعَــاءِ مِــنْ أدهــى الرَّزَايـا

إِذَا اسْتَــوَتْ الأَسَافِــلُ والأَعَالــِي

فَقَدْ طَـــــابَـتْ مُنَادَمَــةُ الْمَنَايَــا

وقد سئل الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تعالى) : كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي ؟ أيكفيه مائة ألف حديث ؟ قال : لا ، قيل : مائتا ألف ؟ قال : لا ، قيل : ثلاثمائة ألف ؟ قال : لا ، قيل : أربعمائة ألف ؟ قال : لا ، قيل : خمسمائة ألف ؟ قال : أرجو ، أي أرجو أن يكفيه، وكان ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى يقول :

يقولــون هـــــذا عندنا غير جائز

ومن أنتم حتى يكـون لكـم عنـد

ويقول الآخر في تجرؤ الجهلاء على العلم والفتوى :

فحــق لأهـل العلم أن يتمثـــــلوا

بيـــت قديم شاع في كــل مجــلس

لقــد هزلت حتى بدا مــن هزالها

كلاهــا وحتى سامها كــل مفلـــس

*　　*　　*

الرجولة في الفيس بوك

الرجولة هي الرجولة في أي مكان ، وأنها لتعني أن يكون الإنسان رجلاً بكل ما تعنيه الكلمة من معان ، وهو ما لا يتفق مع معاني الغدر ، أو الجبن ، أو الخسة ، أو التشهير ، أو النفاق الاجتماعي ، أو البذاءة ، أو التدني الأخلاقي.

الرجولة تعني المروءة ، والشهامة ، والأصالة ، والنجدة ، والإغاثة ، والأدب ، واللياقة ، والقدرة على المواجهة وسائر الأخلاق النبيلة لا عكس ذلك .

أما هؤلاء الجبناء الذين يعمدون إلى استخدام أسماء أو حسابات مستعارة أو مضللة على الفيس بوك وغيره من مواقع التواصل ، مع تعمد إلى تغيير الاسم ، أو النوع ، أو الصورة ، أو الأيدلوجية ، أو الصفة الوظيفية، أو محل الإقامة ، أو كل ذلك ، أو بعضه كوسيلة للإيهام والتضليل والهروب عن أعين الرقيب أو الرقباء ، فإن كل ذلك ليس من الرجولة في شيء ، ولا سيما تلك الجماعات الجبانة التي تعمل وعن عمد على توظيف ذلك لإفشال الدول أو إسقاطها من خلال تشويه منجزاتها ورموزها الوطنية ، بالكذب ، والتدليس ، وقلب الحقائق.

وإذا كان بعض الناس يظن نفسه قادرًا على الإفلات من الرقابة أو المحاسبة أو منهما معًا فعليه أن يدرك أنه إن استطاع الإفلات من حساب الخلق فأين هو من محاسبة الخالق (عز وجل) له ، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}(الأنعام : ٥٩) ، ويقول سبحانه: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المجادلة : ٧) ، ويقول سبحانه : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}(ق : ١٦– ١٨) ، ويقول سبحانه على لسان لقمان (عليه السلام) في وصيته لابنه : { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}(لقمان : ١٦) ، ويقول سبحانه : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا }(الإسراء : ١٣–١٤) .

الرجولة تعني الحفاظ على الأعراض ، ذلك أن الإنسان الأصيل لا يمكن أن يتدنى فكريًّا ولا أخلاقيًّا ، وأن يكون هو هو ظاهره كباطنه ، سره كعلنه ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ) ، فخشية الله (عز وجل) في السر والعلن تعصم الفرد والمجتمع من الزلل ، وقد سئل بعضهم : "بم ينال العبد الجنة ؟"، فقال: "بخمس: استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد ليس معه سهو ، ومراقبة لله

تعالى في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب".

فعلى كل إنسان أن يدرك أنه كما يدين يدان ، وكما يفعل يفعل بأهل بيته ، ولنا في رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أسوة حسنة عندما جاءه شاب فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا ، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا : مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: ادْنُهْ ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا ، قَالَ : فَجَلَسَ قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ ؟ قَالَ: لَا. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ ، قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ : لَا. وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ ، قَالَ: وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ) .

فمن تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولو على رءوس الأشهاد ، والرجولة تقتضي استغلال مواقع التواصل في الإصلاح والنصح والإرشاد والقول الحسن والكلمة الطيبة، ونشر الفضيلة لا الرزيلة.

* * *

الوفـــاء من شيم الكرام

خلق الوفاء أحد أهم الأخلاق الإنسانية الراقية المرتبطة بمجموعة قيمية تدور حول الرقي والمروءة والنبل ، ويكفي للإنسان فخرًا وصفه بأنه وفيّ ، ويكفيه ذمًّا وسوءًا وصفه ووصمه بالخيانة أو الغدر أو الجحود ونكران الجميل ، ففي الحديث الشريف يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (لا يشكر الله من لا يشكر النّاس) (سنن أبي داود) ، وفي الحديث أيضًا : (مَنِ استعاذَ بالله فأعيذُوه ، ومَنْ سألَ بالله فأعطُوه، ومَن دعاكم فأجيبُوه ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ) (سنن أبي داود) .

وقد امتدح رب العزة (عز وجل) نبيه إبراهيم عليه السلام بالوفاء فقال سبحانه : {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى} (النجم :٣٧) ، ويقول سبحانه : {وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً }(الإسراء :٣٤)، ويقول سبحانه:{وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (الأنعام : ١٥٢) ، ويقول سبحانه: { الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَلاَ يِنقُضُونَ الْمِيثَاقَ}(الرعد : ٢٠).

وخُلْفُ العهد والوعد وعدم الوفاء من علامات المنافقين ، وفي الحديث الشريف : (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) (متفق عليه)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ،

وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ) (متفق عليه) ، ويقول الحق سبحانه : { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ }(النحل : ٩١-٩٢) ، وقالوا : ثلاثة تعجل لها العقوبة في الدنيا : " الغدر واليمين الكاذبة ، ورد المعتذر خائبًا " ، وفي الحديث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم : (إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ فَقِيلَ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ) (متفق عليه) ، وفي الحديث القدسي : (ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُوفِهِ أَجْرَهُ) (أخرجه ابن ماجه).

وقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أوفى الناس لأهله ولأصحابه وللناس أجمعين ، فقد كانت امرأة عجوز تزوره (صلى الله عليه وسلم) وهو في بيت أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقوم لها ويهش لها ويكرم وفادتها ، فسألته السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن ذلك ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إنها كانت تأتينا على عهد خديجة) ، وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول عن السيدة خديجة أم المؤمنين (رضي الله عنها) : (آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ

كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلادَ النِّسَاءِ) ، وكان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول عن أبي بكر (رضي الله عنه) : (إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ).

فما أحوجنا اليوم إلى وفاء حقيقي لا جحود ولا نكران للجميل فيه، وفاء التلميذ لأستاذه ، والولد لأبيه ، والصانع لمن علمه ، والإنسان لمن أحسن إليه ، وأن لا نقابل الحسنة بالسيئة ، وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يرشدنا ويوجهنا أن نقابل السيئة بالحسنة فيقول سبحانه : { وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ }(فصلت :٣٤) ، فكيف بمن أحسن إلينا ، ومد وقت الشدة يد العون لنا ؟! إنه الأولى بالوفاء والإكرام ، فالوفاء من شيم الكرام .

*   *   *

ابتلاءات الأنبياء والصالحين

إذا أحب الله عبدًا ابتلاه ، ويبتلى الناس على قدر دينهم ، فأشدهم إيمانًا أشدهم وأكثرهم ابتلاء ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ، الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي بَلَائِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ).

ومن نماذج ابتلاءات الأنبياء ابتلاء سيدنا أيوب (عليه السلام) الذي مسه الضر فصبر ورضي ، ولم يسخط أو يجزع ، حيث يذكر أهل العلم أن الضر كان قد أصابه سنوات فِي مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ مِنَ الدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، وَأَوْلَادٌ كَثِيرَةٌ، وَمَنَازِلُ مَرْضِيَّةٌ. فَابْتُلِيَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَذَهَبَ عَنِ آخِرِهِ، ثُمَّ ابْتُلِيَ فِي جَسَدِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يَحْنُو عَلَيْهِ سِوَى زَوْجَتُه، كَانَتْ تَقُومُ بِأَمْرِهِ حتى مَنَّ الله (عز وجل) عليه بالشفاء ، وردَّ إليه عافيته ، على نحو ما يصور القرآن الكريم : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ} .

ويقول بعض أهل العلم : كيف يغفل من ابتلي في جسده عن قوله تعالى على لسان أيوب (عليه السلام) حين نادى ربه : { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} .

وهذا إبراهيم (عليه السلام) يُبتلى بكيد قومه له وتربصهم به إلى درجة إيقاد النار والعمل على إلقائه فيها حيًّا لإحراقه بها ؛ لكن الرحمة الإلهية كانت حاضرة ، حيث أمر الحق سبحانه النار أن تكون بردًا وسلامًا فكانت ، حيث يقول سبحانه على لسان قومه : { قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ } .

ثم يُبتلى (عليه السلام) ويُختبر في ذبح ولده إسماعيل (عليه السلام) فما كان منهما (عليهما السلام) إلا الرضا والاستسلام لأمر الله (عز وجل) والاستجابة له ، حيث يقول الحق سبحانه : { فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ }.

وهذا نبي الله يونس (عليه السلام) يُبتلى بالتقام الحوت له فلم يغفل وهو في بطن الحوت عن المناجاة بالاستغفار { وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ }حتى كانت النجاة ، حيث يقول سبحانه : { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ* فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}، ولهذا قال بعض أهل العلم أيضًا :

وعجبت لمن ابتلي بالضيق كيف يغفل عن قوله تعالى على لسان موسى (عليه السلام) : { أَن لا إِلَهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}.

وهذا نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد أصابه من الامتحان والابتلاء ما أصابه ، حيث آذاه قومه وأخرجوه ، وحاولوا قتله ، وكسروا ثنيته يوم أحد ، وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم يوم الطائف يرمونه (صلى الله عليه وسلم) بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين ، وهو ينادي ويقول : (اللّهُمّ إلَيْك أَشْكُو ضَعْفَ قُوّتِي ، وَقِلّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ ! أَنْتَ رَبّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبّي ، إلَى مَنْ تَكِلُنِي ؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوّ مَلّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِك عَلَيّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ، وَلَكِنّ عَافِيَتَك هِيَ أَوْسَعُ لِي).

وهكذا أيضًا شأن المؤمنين الصادقين ، حيث يقول سبحانه : {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }.

على أن عاقبة الصبر على الابتلاء عافية في الدنيا ورحمة ورضا من الله (عز وجل) في الآخرة ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ } ، ويقول سبحانه : { وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ * أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا يُصِيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ ، وَلاَ هَمٍّ

وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ) ، ومع ذلك سلوا الله العافية ، ومن ابتلي فليحمد الله ويصبر .

*   *   *

نحو توظيف أمثل لأموال الزكاة

لاشك أن الزكاة إذا وُظِّفت توظيفا صحيحا في مصارفها الشرعية تسد ثغرة كبيرة في احتياجات الفقراء والكادحين والمصالح العامة للوطن ، وإذا سَخَت نفس الأغنياء والقادرين بالصدقات والقيام بواجبهم في باب فروض الكفايات من إطعام الجائع ، وكساء العاري ، ومداواة المريض ، وإعانة المحتاج ، والإسهام الجاد فيما يحتاج إليه الوطن من إصلاح وسلاح وعتاد فإن وجه الحياة لأي وطن سيتغير ، ولن يكون بين أبنائه محتاج ولا متسول ، يقول الإمام على بن أبي طالب (رضي الله عنه) : " إن الله عز وجل قسم أقوات الفقراء في أموال الأغنياء ، فما جاع فقير إلا بشح غني " ، فإن وجدت فقيرًا جائعا فاعلم أن هناك غنيا ظالما لم يُخرج حق الله في ماله ، ولم يف بواجبه تجاه مجتمعه.

وإذا استثمر الوقف استثمارا صحيحا إلى جانب ذلك كله لصالح الوطن أدى ذلك مجتمِعًا إلى الإسهام في نهضة حقيقية لوطننا الغالي ، بل ربما فاض الخير إلى دول أكثر فقرا نحن في حاجة أن نمد لها يد العون كبعض دول حوض النيل التي نحتاج إلى التواصل والتعاون العلمي والثقافي والخيري والإنساني معها على المستويين الحكومي والشعبي بمؤسساته المدنية القوية التي يمكن أن تنفذ مشروعات كبيرة أو عملاقة في تلك الدول وغيرها من الدول الإفريقية الفقيرة كبعد استراتيجي وجزء من أمننا القومي ، وهناك نماذج كثيرة مشكورة في

هذا المجال لبعض مؤسسات المجتمع المدني.

الزكاة حق أصيل في المال:

وأؤكد على حقائق : أولها : أن الزكاة حق أصيل في المال ، وركن رئيس من أركان الإسلام كالصلاة والصيام سواء بسواء ، وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : " ثلاث في القرآن الكريم نزلت مقرونة بثلاث ، لا تقبل واحدة منها دون الأخرى ، وهى قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}(المائدة: ٩٢) إذ لا تقبل طاعة الله مع معصية رسوله (صلى الله عليه وسلم)، وقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}(البقرة: ٤٣) فمن ضيّع الزكاة مع وجوبها عليه لم تغن عنه صلاته من الله شيئا ، وقوله تعالى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (لقمان:١٤) فمن لم يشكر لوالديه جميلهما وصنيعهما لم يشكر الله عز وجل ، ويقول سبحانه في شأن كانزي المال ومانعي الزكاة: { وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ}(التوبة : ٣٤، ٣٥).

الأمر الثاني: أن الإسلام قد دعا إلى الصدقة والإكثار منها يقول سبحانه: { مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٦١) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (ما نقص مال من صدقة) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (خير الصدقة أن تصدق وأنت

صحيح شحيح ترجو الغنى وتخشى الفقر ، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان وقد كان لفلان) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (ما من يوم إلا وينادي ملكان يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا) ، ويقول الحق سبحانه:{هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} (محمد: ٣٨).

مكمن الخلل وإصلاحه :

لاشك أن الخلل لا يخرج عن أن يكون من جهة الدافع أو جهة متلقي الزكاة أو من الجهة الوسيطة سواء أكانت شخصا أم جمعية أم مؤسسة.

فالخلل الذي يأتي من جهة الدافع إما أن يكون بعدم الدفع أصلا ، وإما بالتحايل عليه ، وإما بدفعه دون تمحيص أو تدقيق في أمر الجهة التي يدفع لها.

وهنا ينبغي أن يركز الخطاب الديني على وجوب الزكاة وأهمية إخراجها والإثم الشديد المترتب على منع حق الله عز وجل في المال مع التأكيد على أن الغني لا تبرأ ذمته بمجرد إلقاء المال أي إلقاء وكيف تأتى له ، فبعض الفقهاء على أن الغني إذا دفع المال إلى من ظنه فقيرًا فبان خلافه لم تسقط عنه الزكاة ، فعليه أن يتحرى في المصارف الشرعية وفى أمانة ودقة وشرعية الجهة التي يدفع إليها زكاته حتى تبرأ ذمته أمام

الله عز وجل ، وتسهم زكاته في الثمرة المرجوة التي شرعت من أجلها الزكاة.

والخلل الذي يأتي من جهة الآخذ إنما يأتي من ضعف الوازع الديني لدى بعض من تسول لهم أنفسهم الحصول على المال من أي طريق حتى لو كان فيه إراقة ماء وجوههم ، وهؤلاء علينا أن نذكرهم بمنهج الإسلام وبالحس الإنساني السليم الذي ينأى بالقادر عن العمل على التسول أو دناءة النفس ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلا لِثَلاثَةٍ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دم موجع) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : (المسائِلُ كُدُوحٌ يمدَحُ بها الرَّجُلَ وَجْهَهُ ، فمن شاء أبقى على وجهه ، ومن شَاءَ تَرَكَ) ، ويقول الإمام علي (رضي الله عنه) :

لحمـــل الصخر من قمـــم الجبــــال
أحـــب إلـــي من منـــن الرجــــال
يقـــول النـــاس لي في الكسب عيـــب
قلـت العيـــب فـــــي ذل الســـــؤال

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولى: إِذا لَمْ تَسْتَحِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ)(رواه البخاري).

فينبغي التأكيد على نهي الإسلام عن المسألة بدون حاجة حقيقية ، وعن ذل السؤال، وأن الأبي الكريم لا يمكن أن يعرض نفسه لما لا يليق بالعفيف الكريم ، وأن اليد العليا المتصدقة خير وأكرم من اليد السفلى

الآخذة ، مع التأكيد على أهمية العمل وقيمته وحث الإسلام عليه ، وبيان أن الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، وأن خير الناس من يأكل من عمل يده ، ولا يكون عالة على الآخرين وقد قال الشاعر الجاهلي الشنفري الأزدي:

وأستـف ترب الأرض كـي لا يرى له

علـــيّ من الطـول امرؤ متطـــــول

ويقول البارودي:

خلقـت عيوفًا لا أرى لابن حــرة

علي يدًا أغضي لها حيــن يغضب

أما جهة الخلل الثالثة : فهي آلية الجمع والتوزيع فمع إيماننا بدور بعض مؤسسات المجتمع المدني في التخفيف من معاناة الفقراء والكادحين سواء من خلال نفقات أم من خلال مشروعات خدمية ، وبخاصة الطبية منها، فإنني أرى أن هذه الجهات تحتاج إلى الآتي:

أ. أن تكون تحت مراقبة دقيقة لأجهزة الدولة وأن تقوم هذه الأجهزة بالمتابعة والمراقبة على الوجه الأكمل ، وأن تكون هناك شفافية واضحة في إعلان الميزانيات ، والنفقات والمكافآت مع ترشيد الإنفاق الإداري إلى أقصى درجة ممكنة.

ب. أن تكون هناك خارطة واضحة لوجود هذه الجمعيات ، ونطاقها الجغرافي ، وأنشطتها، بحيث لا تصب كلها في مجال واحد أو مجالات محدودة ، مع إهمال مجالات ربما تكون أكثر أهمية وحيوية للمجتمع.

ج. أن تتولى جهة ما ، ولتكن وزارة التضامن الاجتماعي شبكة ربط وتنسيق إلكترونية تربط من خلالها المستفيدين بالمنفقين ، وبمؤسسات المجتمع المدني في نطاقها الجغرافي أو الخدمي ، بحيث تنتفي ظاهرة المقيدين أو المستفيدين بحرفية تسوليّة من جهات أو جمعيات متعددة في حين لا تصل الزكاة والصدقات إلى مستحقيها الحقيقيين.

د. أن تحدد أهداف وأغراض واضحة قد يتضافر فيها الجميع ، أو تخصص كل جهة أو جمعية لغرض منها ، كإطعام الجائعين وعلاج المرضى ، وسداد ديون الغارمين ، وهى مناط الحملة التي بدأت بها وتبنتها وزارة الأوقاف المصرية .

* * *

حتى لا نخدع مرتين

كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أفصح الناس ، وأبلغ الناس ، ويعدون من عظيم بلاغته (صلى الله عليه وسلم) أحاديثه التي جرت مجرى الحكمة أو المثل ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : (لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ واحِدُ مَرَّتَيْن) (متفق عليه) ، وهكذا كان صحبه الكرام (رضوان الله عليهم) فكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : " لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني" ، ويروى عن المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) أنه كان من دهاة العرب ، وكان يقول : " لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه جزيرة العرب ".

ويجب أن نأخذ من دروس الماضي ما نبني عليه الحاضر وننطلق به في المستقبل ، وأن نتذكر التاريخ الأسود للجماعات المتطرفة وفي مقدمتها رأس الأفعى جماعة الإخوان الإرهابية التي احترفت العمل السري متجاوزة إياه إلى التقية والنفاق ، بل إن بعض أعضائها طبع على ذلك لدرجة يصعب على كثيرين تمييزها ، على حد قوله تعالى في شأن بعض المنافقين : {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ } (التوبة: ١٠١) .

وإذا كنا نؤكد أن الإرهاب لا يمكن أن يعمل إلا في ضوء حواضن تحتضنه وتأويه وتنميه وتوفر له المناخ الآمن ، فإن عناصر الجماعة

الإرهابية لا يمكن أن تتسلل إلى المؤسسات إلا من خلال خلايا نائمة أو متعاطفة تهيئ لها ذلك وتساعدها عليه وتمكن لها فيه ، وإن الأمر لجد خطير، وليس الحل في ترحيل المشكلات وتأجيل المواجهة إلى آماد غير محدودة حتى يستفحل شر هؤلاء ويشتد عضدهم ، ويشكلون ما يشبه اللوبي أو المافيا داخل بعض مؤسسات الدولة بصورة يخشى معها شرهم ومكرهم ، وبحيث يتحولون مع الوقت من مخادعين أو منافقين أو متسللين إلى مافيا يتقرب إليها الضعفاء والباحثون عن المصالح والمنافع ، ولا سيما أن القيادات والعناصر الإخوانية لا دين لها ولا خلق ولا أمانة ولا وطنية ، فهي تغدق على الموالين لها وتستخدم أقصى درجات المنع والحرمان والإقصاء للمخالفين أو المعارضين أو حتى غير الموالين لإخضاعهم وكسر إرادتهم .

وإذا تُرِك بعض الناس وحالهم دون دعم فإن المراهنة على قوتهم وصلابتهم مراهنة خاطئة وغير مضمونة العواقب أو النتائج ، ففي كل يوم نتردد فيه في القضاء على تسلط العناصر الإخوانية ومن يواليها أو يمكنها من رقاب بعض الخلق نخسر مساحات واسعة من الأرض التي يجب أن نتحرك عليها والسواد الأعظم الذي نراهن على وطنيته .

نحن في حاجة إلى تحرك سريع وحاسم وبتار وغير هياب ولا متوجس في جميع المجالات والاتجاهات ، وفي جميع المؤسسات لقطع أذرع الجماعات الإرهابية وتجريدها من أي مصادر قوة ، دفعًا لخطرها الداهم وشرها المستطير .

لقد حاولت تلك الجماعات الإرهابية المتطرفة سابقًا التسلل عبر بعض الجمعيات والنقابات والمؤسسات حتى صاروا نافذين فيها ، ومسيطرين على كثير منها ، مما عرّض الوطن لخطر جمّ ، دفعه الله عنا بفضله وكرمه، ثم بفضل قائد شجاع جسور هو سيادة الرئيس / عبد الفتاح السيسي، ومن خلفه قواتنا المسلحة الباسلة ، التي ما زالت وستظل تسطر ملاحم البطولة والفداء الوطنية ، وفيَّة على العهد في مواجهة قوى الإرهاب والشر ، ومعها رجال الشرطة الأوفياء ، وكل كاتب أو إعلامي أو وطني غيور على وطنه.

ولا يظنن أحد أن المعركة قد انتهت أو أن المواجهة قد حسمت ، لأن نفوس الشر لا تهدأ ، وهناك من يدعمها ويستخدمها ويمولها ويحركها ، ومالم نتحلَّ باليقظة والشجاعة والحسم فإن الأمر لجد خطير ، ولقد تحدثت في أكثر من مقال سابق عن مخاطر المترددين وأكدت أن من المحزن في هذه المرحلة الفارقة في تاريخ وطننا وأمتنا ، والتي تقتضي منا جميعًا أن نقف وقفة رجل واحد في مواجهة الإرهاب وقوى الشر والظلام أن يتردد البعض في حسم هذه المواجهة التي تقتضي أكثر درجات الحسم ، إذ إن بعض الناس مازالوا مخدوعين أو مترددين في وقت نحتاج أن نذود فيه بشجاعة عن حمى الوطن الذي هو القلب النابض للعروبة والإسلام ، وصمام الأمان لأمتنا العربية ، وعمود خيمتها ، بل هو رأس الحربة في مواجهة الإرهاب وكف شره عن الإنسانية .

على أن هناك أيضًا من يراهن على الحصان الخاسر ، ويتوجس من

الوهم ، ويخشى أن تدور الأيام إلى الخلف ، فلا تجد لهم موقفًا واضحًا ، وهناك من هو على استعداد لأن يتحالف مع العنف والإرهاب ومن تبنوا العنف والإرهاب مسلكًا ، أو مع بقايا الفصائل المتشددة أو الإرهابية ، أو ما يعرف بالخلايا النائمة لها ، دون تقدير للمصلحة الوطنية ، ونقول لهؤلاء جميعًا : أفيقوا ، ولا ترددوا ، وأدركوا الواقع ، فإما أن نكون أو لا نكون ، أما إمساك العصا من المنتصف فذلك عصر قد ولى إلى غير رجعة ، ونقول لهم : "نحن نراكم" .

* * *

مصائر الأمم

عندما نتحدث عن مصائر الأمم وما أدى إلى سقوط الدول الكبرى عبر تاريخ البشرية الطويل نجد أن الظلم والطغيان والعتو والاستكبار والاستعلاء والشذوذ عن مناط الفطرة الإنسانية السوية كان أبرز عوامل هذا السقوط ، ففي شأن قوم عاد الذين طغوا في البلاد ، كان طغيانهم سبب سقوط دولتهم ، يقول الحق سبحانه وتعالى : {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}(فصلت: ١٥، ١٦) ، ويقول سبحانه في شأن قارون وفرعون وهامان:{وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (العنكبوت: ٣٩، ٤٠).

وأما قوم سيدنا لوط (عليه السلام) فقد انحرفوا عن جادة الطريق إلى منحنى الرذيلة والشذوذ ، حيث يقول الحق سبحانه : {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ}(الأعراف : ٨٠-٨٤).

وأما قوم سيدنا شعيب (عليه السلام) فكانوا يطففون الكيل والميزان ويبخسون الناس حقوقهم وأشياءهم ، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام) مخاطبا قومه: { أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنتَ إِلا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}(الشعراء: ١٨١ – ١٨٩).

ومن يتتبع عوامل سقوط الدول يجد أن كل من طغى وتجبر واستعلى واستكبر كانت نهايته الخراب والدمار ، وأن كل من انحرف عن طريق الجادة شذوذًا عن الفطرة السوية ، أو أكلا لأموال الناس بالباطل قد لقى المصير نفسه ، على شاكلة ما أصاب قوم عاد أو قوم نوح أو قوم هود أو قوم لوط أو قوم صالح أو قوم شعيب .

ونستطيع أن نؤكد أن كل الحضارات التي لم تقم ولم تبن على القيم والأخلاق حضارات كان مآلها الزوال والسقوط ، وحملت عوامل هدمها وسقوطها في أساس بنائها وأصل وقيامها .

فشتان ما بين السياسة النظيفة التي تبنى على الحكمة والعقل والعدل وعدم الجور وعدم الاعتداء وعدم الاستخفاف بالآخر أو الاستقواء عليه ، وبين السياسات التي تقوم على الانتهازية والمكر والخداع والكيد للآخرين والتدبير لهم ، والعمل على تحطيمهم وتدميرهم وإسقاط دولهم أو إنهاكها أو تفتيتها وتمزيقها.

فقد يكسب أصحاب المكر والخداع جولة لكنهم لا يبنون دولة ، بل إنهم حتما سيسقطون دولهم آجلاً أو عاجلاً ، لأن الإنسان على مستوى الأفراد والدول يمكن أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت لكنه لا يمكن أن يخدع كل الناس كل الوقت .

إن الدول العريقة في الحضارة هي تلك الدول التي تحترم نفسها وبنفس القدر تحترم الآخر ، تحترم كل تعهداتها وكل التزاماتها ، لا تعتدي على الآخرين ولا تتآمر عليهم ولا تكيد لهم ، بل يكون لديها القدرة على التحمل والامتصاص وبما لا يأخذ من كرامتها أو استقلال قرارها الوطني .

ولا شك أن التقاليد السياسية شأن المعطيات الحضارية أمور تراكمية تبنى عبر الأزمان وتتوارثها أجيال خلف أجيال ، شأن حضارتنا الراسخة الضاربة في أعماق التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام .

*   *   *

مرضاة الله ورضا الخلق

مرضاة الله غاية كل مؤمن ، والسعي لها مقصد كل مخلص ، وهي سبيل المتقين ، ومنهج السالكين ، من سعى إليها رزق ، ومن عمل لها أجر وجبر ، ذلك أن ربّ العزة (عز وجل) قد قال في حديثه القدسي : (أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي ، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) (رواه مسلم).

أما رضا الخلق كلِّ الخلق فغاية لا تدرك ، ومرام لا ينال ، ذلك أن أي إنسان لا يمكن أن يسع الناس كل الناس بماله ، ولا بجاهه ، ولا بسلطانه، حيث إن مطالب الناس منها ما هو منطقي ومشروع ، ومنها ما ليس منطقيًّا ولا مشروعًا، ومنها ما هو في الطاقة والإمكانية وقابل للاستجابة والتحقيق، ومنها ما هو فوق الطاقة والإمكانية بالنسبة للأفراد ، وما يحتاج إلى وقت لتنفيذه وفق إمكانات المؤسسات والدول ، غير أن المسئولية الفردية والتضامنية والتكافلية تقتضي أن نعمل معًا على كل المستويات لقضاء حوائج الناس ، وبما يحقق لهم مقومات الحياة الإنسانية الكريمة ، ويطيب لي أن أسجل الآتي :

١- أن العمل على مرضاة الناس وتحقيق رضاهم فيما هو قانوني ومشروع طريق واسع إلى مرضاة الله (عزّ وجلّ) ، فمن يسر على معسر يسر الله عليه ، ومن فرج عن إنسان كربة فرج الله (عزّ وجلّ) عنه كربة من

كرب يوم القيامة ، ومن ستر إنسانًا ستره الله في الدينا والآخرة ، ومن مشى في حاجة إنسان حتى يقضيها كان الله في حاجته ، فعن سيدنا عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قال : سمعت صاحب هذا القبر والعهد به قريب يقول – يعني نبينا محمدًا (صلى الله عليه وسلم) – : (مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا لَهُ مِنَ اعْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ ، وَمَنِ اعْتَكَفَ يَوْمًا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ ثلاثَةَ خَنَادِقَ ، أَبْعَدُ مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ) .

٢- أن العاقل الحكيم لا يعمل على مرضاة الناس بمعصية رب العباد ومخالفة أوامره ونواهيه ، كأن تكون مرضاة الخلق على حساب الحق والعدل والقانون ، وكما قالوا : أنت صديقي والحق صديقي ، فإن اختلفنا فالحق أولى بالصداقة ، فمن طلب رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس ، ومن طلب رضا الله بإكرام الناس وحسن معاملتهم دون شطط أو تجاوز ، أو مخالفة شرعية أو قانونية رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ذلك أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يحولها ويوجهها كيف يشاء .

٣- أننا مأمورون بالتوازن بين أمريّ الدنيا والآخرة ، فيجب علينا أن نعمل على عمارة الكون ، وبناء الحضارة ، وأن نعمل بالتوازي لأمر آخرتنا ، وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول : كَانَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ ، فَقُلْتُ : لِي مَالٌ ، أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ : (لاَ) قُلْتُ : فَالشَّطْرِ؟ قَالَ : (لاَ) قُلْتُ : فَالثُّلُثِ ؟ قَالَ : (الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ ، أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ

النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ ، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ ، وَلَعَلَّ اللَّهَ يَرْفَعُكَ ، يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ ، وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ) (صحيح البخاري) ، وفي الأثر : " اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا ".

٤- لقد آثرت التعبير في جانب رضا الله (عز وجل) بلفظ "مرضاة" لأن زيادة المبنى زيادة في المعنى ، وعلى المؤمن الصادق أن يطلب في جانب مرضاة رب العزة أعلى درجات الرضا ، ويكون ذلك بالعمل على تحقيق أعلى درجات التقوى ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (آل عمران : ١٠٢) .

أما في جانب الخلق فقد آثرت التعبير بكلمة (رضا) وهي أن أقل الصيغ مبنى أقلها معنى ، ذلك أنك لو اجتهدت في إدراك أدنى درجات رضا الخلق جميعًا فلن تدرك ، مالم يشملك رب العزة بعنايته ورعايته ، فيفتح لك من قلوب العباد ما أراد ، وذلك حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله عليه وسلم) : {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال: ٦٣) ، فيجب أن نعمل على رضا الخلق بمرضاة الخالق لا بغضبه ولا بمخالفة أمره .

*   *   *

الطلاق النفعي

طالعت في بعض الصحف والمواقع تقارير مفصلة ومطولة عن الطلاق الزائف الذي يقوم به بعض الناس بغية الحصول على مال لا يستحقونه ، حيث تعمد بعض الأسر إلى الطلاق الشكلي على الورق ، لتقديم وثيقة الطلاق الشكلية للحصول على معاش غير مستحق ، كما قد يكون هذا الطلاق الشكلي أو النفعي لغايات أخرى على نحو ما كان يحدث من محاولة الحصول على إعفاء الابن من التجنيد كونه العائل الوحيد لوالدته المطلقة ، ونحو ذلك ، ويقاس على ذلك أيضًا من يلجئن للزواج العرفي بدل الموثّق من أجل الحفاظ على المعاش وعدم خسارته أو انقطاعه بسبب الزواج .

وسيأتي تناولنا لذلك من جانبين : الأول شرعي والآخر تنظيمي ، أما الجانب الشرعي فلا شك في أن أي مال يتم الحصول عليه نتيجة هذا التحايل فهو سحت وأكل للمال بالباطل ، يورد صاحبه المهالك في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بذهاب البركة من المال والولد ، والتعرض لغضب الله (عز وجل) وسخطه ، وعدم الراحة أو السكينة أو الطمأنينة ، فهذا المال سُحت ، وكل جسد نبت من سحت كان للنار وقودًا ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) (رواه الإمام أحمد في مسنده) ، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما) أن سيدنا سَعْد بْن أَبِي وَقَّاصٍ قال : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي

مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الْحَرَامَ فِي جَوْفِهِ مَا يُتَقَبَّلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ) ، لذا كان بعض الصالحين يتركون بعض الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إنَّ رجالًا يَتَخَوَّضونَ في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فلَهُمُ النارُ يومَ القيامَةِ) (رواه البخاري) .

ويقول الحق سبحانه عن آكلي الحرام :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}(النساء :٢٩) ، فأكل الحرام قتل للنفس وإهلاك وتدمير لها في الدنيا والآخرة ، فهو في الدنيا وبال على صاحبه في صحته ، في أولاده ، في عرضه ، في أمواله، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}(طه: ١٢٧).

وآكل الحرام لا تستجاب له دعوة ، فقد ذكر نبينا (صلى الله عليه وسلم) (الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَكْسَبُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ).

أما من ناحية التنظيم والإطار القانوني فإنني أقترح أن نصير إلى قانون يجرم كل ألوان الاحتيال والتدليس ، واعتبار ذلك كله ضمن

جرائم التزوير المتعمد ، وألا يقتصر عقاب هذه الأفعال على المستفيد وحده ، إنما يجب أن يتجاوزه إلى كل من تثبت مساعدته على ذلك .

كما أن الأمر يجب ألا يتوقف عند وقف الصرف للمزور غير المستحق إنما يجب أن يتضمن رد المبالغ التي صرفت بدون وجه حق من خلال التزوير والتحايل على القانون ، مع عقوبة أو غرامة رادعة تحمي من تسول له نفسه اقتراف هذه الجرائم من شر نفسه.

ولهذا أكدنا وما زلنا نؤكد أن ما عليه القانون في الأمور التنظيمية هو ما عليه الفتوى ، وأن إفتاء غير المؤهلين أو غير المتخصصين أو بعض العناصر الإرهابية بحل هذا التحايل جريمة تستحق المحاسبة .

*   *   *

عذرًا رسول الله

أعجبني في كلمة فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب – شيخ الأزهر اعتذاره الواضح إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذكرى مولده (صلى الله عليه وسلم) عن ما ترتكبه العناصر المجرمة الضالة باسم الإسلام وتحت راية القرآن ، والإسلام والقرآن منهم بريئان براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام ، ففي الوقت الذي يجب أن نقف على الدروس المستفادة من سيرة سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) العطرة وفى مقدمتها درس الرحمة التي هي الغاية الأسمى من بعثته (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في محكم التنزيل بأسلوب القصر : {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}(الأنبياء : ١٠٧) تدور تعاليم الرسالة كلها حول هذا المعنى الإنساني الجامع ، نجد أنفسنا مضطرين للوقوف موقف المدافع عن ما أصاب صورة الإسلام من جراء أفعال هذه الجماعات العميلة الخائنة، التي لا علاقة لها بالإسلام ، كما نجد أنفسنا مضطرين لأن نصرخ بصوت عال : نحن ضحايا ولسنا جلادين .

وتتسق البلاغة النبوية مع بلاغة القرآن الكريم في تأصيل خلق الرحمة حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ) (رواه الحاكم في المستدرك) باستخدام (إنما) كطريق من طرق القصر ، تناغما واتساقا مع ما أصلته ورسخته الآية الكريمة من صفة الرحمة ،

وجعلها مدارًا رئيسًا تدور حوله المقاصد العامة لشريعتنا الغراء .

فكل فعل يدور في فلك هذا المعنى هو من صميم تعاليم الإسلام ، وكل فعل يتنافى مع هذا المعنى لا علاقة له بالإسلام ولا علاقة للإسلام به.

فبأي دين يُقتل الأبرياء ؟ ، وبأي فهم للدين يُروع الآمنون ؟ ، وبأي تفسير منحرف للنصوص تُستحل دماء الآمنين ، وتُروع نساؤهم وأطفالهم؟ وبأي ذنب وفى أي ملة يُستهدف الركع السجود ؟.

فلا شك أننا أمام استهداف لديننا ووطننا ، استهداف لديننا لتشويه صورته النقية الصافية ، والوجه الحضاري لشريعتنا السمحاء ، تخوفًا من سرعة انتشاره ، وعملاً على تحجيم وتقزيم الدول التي تدين به .

أما عن استهداف وطننا ومنطقتنا فندرك أنهما يتعرضان لمحاولات استنزاف مواردهما ، من خلال استخدام عناصر عميلة خائنة من قوى شر عالمية تريد أن تفرض سطوتها وسيطرتها وهيمنتها على المنطقة كلها.

كما أحيى وأؤكد ما ذكره فضيلة الإمام الأكبر من أن ما حدث من استهداف المصلين بمسجد الروضة أثناء تأديتهم صلاة الجمعة إنما هو حرب على الله ورسوله ، وتعدٍّ على حرمات الله وانتهاك لقدسية بيوته ، فما حدث إنما هو بكل المقاييس جريمة نكراء شنعاء هزت المشاعر الإنسانية لكل من كان لديه ضمير إنساني حي ، آملين أن تستفيق الإنسانية جمعاء من غفوتها ، وأن تنفض عن نفسها غبار وعتامة المصالح السياسية الضيقة التي يجب أن تتضاءل وتتوارى أمام حرمة الدماء

والأعراض واحترام آدمية الإنسان الذي كرمه ربه (عزَّ وجلَّ) ، فقال سبحانه :{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ}(الإسراء : ٧٠) ، فكرم الحق سبحانه وتعالى الإنسان على إطلاق إنسانيته بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو عرقه ، ولم يقل كرمنا المسلمين وحدهم ، أو المؤمنين وحدهم ، أو الموحدين وحدهم ، أو المتدينين وحدهم .

إن ما ارتكبته هذه الجماعات الإرهابية المجرمة يُعد بحق جريمة من أبشع وأنكى الجرائم في حق الإنسانية وفي تاريخها وفي سجل الإجرام الأسود ، مما يتطلب هبَّة وطنية واحدة ، كما يقتضي هبَّة أكبر وأوسع من أحرار العالم كله ، للوقوف صفًّا واحدًا في وجه قوى الإرهاب والشر ، حتى نقضي على هذا الإرهاب الغاشم ونقتلعه من جذوره بإذن الله تعالى .

* * *

فهرس الموضوعات

*   *   *